

الموسوعة الإسلامية الكبرى

*

محکم

الرسالة والرسول

تأليف

الدكتور نظمي لوقا

مقدمة بقلم السيد

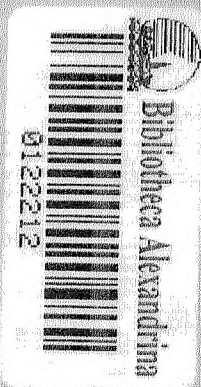
كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة

مركز الطبع والنشر دار الكتب الحديثة

لصاحبها توفيق عفيفي عاصم

شارع الجمهورية بالقاهرة



قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها بإقليمى الجمهورية

الموسوعة الإسلامية الكبرى

مَجْلَد
الرسالة والرسول

بمقدم
الدكتور نظمي لوقا

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية — أغسطس ١٩٥٩
طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم

طابع دار الكتاب العربي، بيروت
مستعمرة مصرية للطباعة

الموسوعة الإسلامية الكبرى

محکم دلائل
والتسکالہ والرسول

تأليف
الدكتور نسطی لوقا

تعريف

بقلم السيد

كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما الإسلام ؟

وما المسيحية ؟

وما الموسوية الحق ؟

هل هي إلا أديان سماوية تنزلت على البشر في مراحل مختلفة من حياتهم ، ليستشرفوا إلى المثل العليا ، ويستمسكوا بالخلق والمضيئة ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ويرتبطوا إلى الله الخالق الرحمان القادر ارتباط الحب والرجاء والخشية ، فيعيشوا ما عاشوا على الأرض إخوة متحابين ،

يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذى
الذى خلقهم وإليه مصيرهم جميعاً فى يوم لا ريب فيه ؟ . . .
• إيمان بالله الواحد . . .

• تطلع إلى المثل العليا فى التمايش الإنسانى . . .
• استمساك بالخلق والفضيلة فى السلوك الفردى
والاجتماعى . . .

• أخوة إنسانية جامعة تحصن البشر ضد الأثرة والاستعلاء
والبنى ، وتربط بعضهم إلى بعض برباط الحب والتعاون . . .
• رجاء مشترك إلى الله أن يشملهم ، يوم يصيرون إليه ،
بالرحمة والرضوان .

تلك هى المبادئ العامة فى ديننا المشترك ، نستحصرها
جميعاً فكرة وقيماً فى كل صلاة نصليها ، وفى كل صيام
نرتفع به فوق مستوى شهواتنا ، وفى كل زكاة نؤديها لنؤكد
الأخوة الإنسانية بين بعضنا وبعض ، وفى كل رحلة حج
نرحلها من قريب أو من بعيد لفعل رحم الإنسانية
المؤمنة بالله .

مبادئ عامة لا يختلف فى الإيمان بها ذو دين عن ذى دين
غیره ، على تسدد الأسماء والعمقات والبقاع والمجتمعات

— V —

وما يستتبع تعددها من اختلاف في بعض الموازين أو في بعض الوسائل .

دعوة واحدة ، تنزلت من إله واحد ، لعالم واحد ، تعاقبت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء ، وتماقبت أبنياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ، ليكونوا تعبيراً متطوراً لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال ، من غير نقص فيها ولا زيادة ، لأنها دعوة أزلية أبدية منذ خلق الله الخلق إلى أن يجمعهم في ساحة رحمته وعدله .

سوسى ... وعيسى ... ومحمد ...

هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية لا يختلف أحد منهم عن أحد في مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها ، وإنما اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبي منهم إلى عهد نبي ، فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبي ، والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد . . .

معنى لم يظن له كثير من الناس في كثير من العصور ، وظن له مؤلف هذا الكتاب ، فأضاء مصباحاً قوى الضوء خليقاً بأن يهدي إلى طريق الرشاد .

— ٨ —

كتاب عن « محمد » الرسول . . .

خطرت فكرته على قلب مسيحي عربي يؤمن بالله ،
ويؤمن بالعقل ، ويؤمن بالإنسانية . . .

— درس محمداً إنساناً . . .

— ودرسه داعياً لدين ، ومرشداً إلى هدى . . .

— ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضاري
في المجتمع الإنساني . . .

— ودرسه نبياً ورسولاً . . .

— فأمن إيمان القلب والعقل جميعاً بأنه نبي رسول
بقلب المؤمن ، وعقل الإنسان ، وفكر الباحث ، درس
« نظمي لوقا » حياة « محمد بن عبد الله » ، ثم أفرغ دراسته
موجزة في هذا الكتاب ، ليكون لبنة في أساس بناء وحدة
فكرية وروحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد
وبالفضيلة ، وبالمثل الإنسانية ، وبالقيم الروحية . . .

إننا - نحن المسلمين والمسيحيين من أبناء الأمة العربية -
نتعرض في هذه الأيام لسكيد شديد يربص بنا من يمين
وشمال . . .

— ٩ —

دعوات آئمة ترد إلينا من الشرق ومن الغرب ، لتتخلى
عن ديننا ، ونتحلل من روابطنا ، ونتنكر لمثلنا ومبادئنا ،
ونكفر بالله الواحد لنعتنق دين « سارتر » أودين « كارل
ماركس » ! .

الشيوعية الموحدة في الشرق ، والوجودية المنحلة في الغرب ،
تحاولان في هذه الأيام ، متعاونتين أو متنافستين أن تقضيا على
مقوماتنا ، وعلى وجودنا ، وعلى إرادتنا وإنسانيتنا بالقضاء على
ديننا ، وعلى إيماننا بالله الواحد ، لنقع فريسة سهلة لأى المعسكرين
المتعاونين على الفساد ، المتنافسين في الشر والمنكر . . .

ونحن — المسلمين والمسيحيين في هذه الأرض المباركة ، أرض
النبوات ، مهمط الوحى ، وطن الحب والسلام والرحمة ، مشرق
الحضارة الإنسانية — لا نريد ولا نريد الله أن تنعكس الإنسانية في
وطننا ، ولا أن يرتكس في الفساد والإثم قومنا ، ولا أن نذل بعد
عزة في أوطاننا ، وديننا هو حصن قوتنا ، وهو درع الوقاية لنا ،
وإيماننا المشترك بالله الواحد هو الذى يعصمنا من الهوان والذلة ،
لأن الله وحده هو الذى نخاف ونرجو ، فلا طاقة لأحد بالسيطرة
علينا ومعنا الله ! .

نحن — المسلمين والمسيحيين — فى الأمة العربية .

— ١٠ —

- نؤمن بوحدة أمة ...
- ونؤمن بوحدة ديننا مثلاً ومبادئُ للتعايش الإنساني .
- ونؤمن بأنبيائنا رسلاً لهداية البشر وتقديم الإنسانية ...
- ونؤمن بالله الواحد ونتقّيه في كل ما نأخذ وما ندع من أمورنا وأمر الناس ، ليكون المجد لله في الأعلى ، وعلى الأرض السلام والمحبة ما

كمال الدين جيّين

تطور .. نبيل

بقلم الأستاذ أمين الخولى

إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة
التي تدرك من التدوين أسى معانيه
وأنبل أغراضه .

منذ بضعة وعشرين عاماً أهديت بحثاً عن « صلة الإسلام
بإصلاح المسيحية » إلى العقول القوية ، والقلوب الكبيرة ، التي
تدرك من التدوين أسى معانيه .. إلخ ما يقرأ القارئ في رأس هذا
المقال .. وأردت أن ألفت بها أحرار الفكر ، أطهار القلب ، إلى
أن هذه الصلة بين الدينين ليست إلا أتراراً لظاهرة اجتماعية ،
في حياة التدوين البشرى ... وأن البحث العلمى النزيه المحايد
هو الذى انتهى إلى هذه الصلة بين الإسلام والمسيحية .. دون
أى رغبة في كسب نخر ، وأى محاولة في إحراز فضل .

ولقد نقلنى إلى هذه الآفاق التى تبدو بعيدة مترامية الأطراف
وأعاد إلى ذاكرتى إهداء كتب منذ نحو ربع قرن ، ومضى بي
إلى ذرى الجلال والكمال وما لفت إليه القارئ من أمثال أولئك
الرؤى .. فعل بنفسى كل هذا كتاب فرغت الساعة من قراءته .

هو كتاب « محمد . الرسالة والرسول » لمؤلفه الدكتور نظمي لوقا
فإن الكتاب نفسه يحدث عن التطور الديني ، ويعرض
صوراً منه في حياة الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية . .
والمسيحية .. والإسلام ، وينتهي ذلك إلى : أن رسالة الإسلام
جاءت مناسبة تطور البشرية الطبيعي .

على أن من الحق أن أصارح قارئى بأن جو التطور ليس هو
وحده الذى حفزنى إلى الكتابة عما عنوانت له هنا بالتطور النبيل ،
بل إن شعوراً قوياً دفاعاً منهياً من الكتاب هو الذى أجبرنى
أو كاد يجبرنى ، على أن أكتب عن هذا الكتاب ، وأبادر فأؤكد
لقارئى أن الذى دفعنى أو أجبرنى على هذه الكتابة ليس
هو شعور المتدين المتمصب الذى يرى فى الكتاب انتصاراً لدينه،
أو كسباً لنصير جديد من شخص يدافع عنه . . أو حجة
تؤيده ، أو دليل ينهض فى وجه معارضيه .. كلا .. بل إن الذى
دفعنى وأجبرنى إنما هو شعور يعضى فى عنقه ودفعه ، إلى أن
ينقلنى إلى الطرف المقابل تمام التقابل لهذا التمصب والتحيز والحمية
الجاهلية التى تغمر نفس ذى الأفق المحدود ، الغافل عن الوحدة
الكبرى ، والغاية العليا للتدين الإنسانى فى كل زمان سحيق مضى
أو بعيد يقبل . . وفى كل مكان ناء من الأرض مجهول ، أو قريب

منها معمور .. وتلك الطبيعة الإنسانية المترفعة في الشعور هي التي
 ذكرتني بالإهداء القديم : إلى الذين يدركون من التدين أسمى
 مما نيه .. إلخ .. إذ تمثل لى في قوة أن الدكتور نظمي لوقا هو أحد
 هؤلاء الذين هتفت بهم من وراء الغيب منذ بضعة وعشرين عاماً
 في الأيام والأشهر التي عشت فيها أمس^١ الصلة بين الإسلام
 والإصلاح المسيحي البروتستانتي .. في نزوع علمي .. صدرت
 كلامي في هذه الصلة بالحديث عنه واللفت إليه بكل نزاهته
 المحايدة ، ودقته الباحثة .. لقد تمثل لى الدكتور نظمي لوقا أحد
 هؤلاء المدرسين المرحومين .. فإنه وهو القبطي الصليبي ، كما يقول
 عن نفسه ، يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب
 عن محمد الرسول ورسالته ، فيقول من القول المترفع مالا أجد
 بعضه أحق من بعض بالإشارة إليه ، أو بنقل فقرات منه
 للفارسي^٢ .. فكل كلمة فيه صالحة لهذا النقل ، مستحقة لهذه
 الإشارة .

إنه — في بيان جلي^٣ — يشرح العوامل التطورية التي سیرت
 حياة الأديان الثلاثة ووجهتها إلى أهداف بعينها فدعواتهم .. وبفهم
 تلك العوامل التي وضعت كل رسالة من هذه الرسائل في مكانها
 من سائر أخواتها .. وينتهي ، على ضوء تلك العوامل المسيرة

للحياة والتاريخ إلى تقرير : أن الإسلام ختام الرسالات السماوية وقد استغنت به وعنده الدنيا عن توجيه آخر من السماء ..

وفي حب للحقيقة أكثر من حبه لأفلاطون — كما قال أول كتابه — وفي تمثيل ، بل في تقمص لروح « غاندي » الذي كان يصلي بصفحات من براهما ، وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن . . . يعضى في شرح مقارن لأهميات الأسس الإسلامية في إفاضة وصراحة ، ووضوح . . يصورها استشهاده أول ما استشهد بالآية القرآنية « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْعُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » . فإذا كانت مناجاته الروحية لأبى القاسم وما يترأى له من جوانب شخصيته الجليلة فذلك ما لا تطيقه النفس البشرية إلا بعد استشراف لدنيا غير دنيا سكان هذا الكوكب المخلد إلى أرضه ، التهاك على أوهامه ، المتفاني في سبيل تفاهاته .

يشعر قارئ كتاب « محمد الرسالة والرسول » أن باستطاعة البشرية الترفع المحقق عن وراثتها ورواسبها الصلبة من أفعال آلاف الأجيال .. واستهواها العنيفة . وضعفها التهاك أمام هذا وأشباهه مما ينقلها ، ويحول دون كل استعمال منها .. وهي

حال الكثرة السائرة ، بل حال السكل والجميع إلا قلة نادرة .. لا يكاد يكون لها حكم .. إننا جميعاً بكل ضعف بشريتنا لا ندرك من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء .. والحق والسخط على حطب جهنم المخالفين لنا .. وتلك هي الآفة التي صب بها أهل الأديان على الحياة في كل عصور التاريخ شواظاً من نار ، في محارق ومذابح .. ومعارك ، من المذهب النقي والمقيمة السليمة على الملاحظة المراطقة المبتدعين .

إن شيئاً وراء ذلك كله في أعماق نفسي ، وطوايا روحي هو في الحق الذي أثار ذلك الشعور الدفاع الغلاب في نفسي عند قراءة ما وضعت من كتاب « محمد » للدكتور نظمي لوقا .. إنه حلم باهر قد تراءى للنفس حيناً ما منذ سنين لا تقل عن العشرين . أذهبت نسمة من تلك النسمات الإنسانية المنعشة في دعوة تردت أصداؤها من أقصى الغرب إلى أبعد الشرق تريد أن تستنفر أهل الأديان إلى أن يجمعوا أديانهم وسيلة من وسائل محاربة البغضاء والحقدين بين الناس ، وقلة تعاونهم على تخليص دنياهم من آفاتهما ، بما في عقائدهم من خيرية وروحية .

وإلى هذا الحلم الجميل الفاتن ، نهت محاولة الدكتور نظمي لوقا ، في سبيل التسامح على أوهام البشرية وردت هذا الحلم القديم

ظلالاً من الرحمة ، وخيوطاً من النور ، تراءى غير ضعيفة في أفق
الأمل الإنساني ، الذي لا يصصره اليأس مهما تقس حوله الأحداث ،
وتتجسم الفترات .

إن كتاب « محمد الرسالة والرسول » يرد إلى العقول القوية
والقلوب الكبيرة الثقة في بلوغ الحياة على هذه الكرة المظلمة
إلى ما يسامت أملها في بلوغ القمر ، والدوران مع الشمس ..
إن هذا الكتاب يقرؤه كل ذي عقل قوى ، وقلب كبير ،
من أي دين وأي ملة . بل مع أي إنكار فيرى أن التدين قدير
على أن يكون رفماً نبيلاً ، يطهر النفوس ، ويحيي الآمال .. ومن
أجل هذا رجوت في ثقة أن يكون هذا الكتاب تطوراً نبيلاً ..
في نظرة كل ذي دين إلى ما يرحى من خير للدنيا بالتدين .

أمين الخولي

تحية تقدير

بقلم الأستاذ فتحي رضوان

السيد / الدكتور نظمي لوقا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فإني أرجو أن تأذن لأحد مواطنيك ، في الوطن العظيم مصر ،
وفي الوطن الأكبر ، العالم وطن الجميع ، أن يكتب إليك عن
غير سابق صلة أو تعارف .

فإن كتابك عن «محمد الرسالة والرسول» ، كان خير بديل عن
صديق لكليتنا ، يقدم كل منا لصاحبه ، شأن الكتاب الفاجع
أو الصادق دائماً ، في عقد الصلة بين الكاتب وقرائه .

كما أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك ، أن كتابك حفزني على
تحرير هذا الخطاب لأبك أدت الحديث فيه عن محمد ، نبي
المسلمين وأنا مسلم ، وأنت من المسيحيين ، فتأليف الكتب عن
الإسلام ، من مسيحيين سبقك إليه كتّاب كبار من مسيحي أوروبا
وأمریکا ولم يروا في ذلك حرجاً وإن كان فضلك أكبر من فضلهم
(٢ - محمد)

— ١٨ —

جيماً إذ أن ما تذرعت به من شجاعة للإقدام على هذا العمل
الأدبي ، أكثر مما احتاجوا إليه بكثير . فاختلاف الظروف
والبيئات والملابسات يحمل من عملك شيئاً أقرب إلى الغامرة
والمجازفة بالصلات والصدقات والمصالح . لذلك فإنى أكتب هذا
لأعلن إليك ، أن الطابع الإنسانى فى كتابك قد مس شغاف قلبى
أكثر من أى شىء آخر فيه على جماله كله . فقد جرى فأسلوب
من يحب الناس ويحب الخير لهم ، ويحب الأخيار فيهم ، ويحب
لهم أن يعيشوا متآخين ، صافية نفوسهم ، مشرقة بالود والتسامح
قلوبهم .

ودمت لأخيك الخالص ما

ففى رضوان

محکم
الرَّسَالَةُ وَالرَّسُولُ

« وان من أهل الكتاب لمن
يؤمن بالله وما أنزل اليكم
وما أنزل اليهم خاشعين لله
لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك
لهم أجرهم عند ربهم . »

مصدق الله العظيم
(آل عمران)

« و افلاطون حبيب الى نفسه،
يُريد أن الحقيقة أحب
الى نفسه من افلاطون ! »

أرسطو

الاهداء

الى السائرين فى الظلمة والى من
يلوح لهم - من أنفسهم ! - فجر
جديد ...

وأيضاً الى

الروح العظيم: مهاتما غاندى

الذى كان يصلى بصفحات من براهما ،
وآيات من التوراة ، والانجيل ، والقرآن
ومات بيد هندوسى متعصب ،
شهيد دفاعه الصادق المجيد عن
حرية العبادة لأتباع محمد ..
نظمى لوقا

مفتاح

من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور .
ومن يغلق عقله وضميره دون الحق ، يضير عقله وضميره
ولا يضير الحق .

فالنور منفعة للرأى لا للمصباح ، والحق منفعة وإحسان
إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه .

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصب الذميم
الذى يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى
لذى البصر . ومن الصمم لذى السمع . لأن الأعمى قد يبقى بعد
فقد البصر إنساناً ، والأصم قد يبقى بعد فقد السمع إنساناً . . .
أما من اختلّت موازين عقله أو موازين وجدانه ، حتى ما يميز
الخبث من الطيب ، فذلك ليس بإنسان ، بالمعنى المقصود من
كلمة إنسان .

ويهدى من هذا النهج وجدت من واجبي أن أكتب هذه
الصفحات ، موقناً أن الإنصاف حلية يكرم بها النصف نفسه
قبل أن يكرم بها من ينصفهم . .

وليس الإنصاف مزية لصاحبه إلا حيناً يغالب الحوائل ،
كالعقائد الموروثة ، والتقاليد السائدة . . . أما حين يوافقها
فما أهون الإنصاف ، « ولولا المشقة ساد الناس كلهم » كما يقول
أبو الطيب . وأوشك أن أقول على غرار « لولا المصيبة أنصف
الناس كلهم » .

فما أحوجنا في هذا العالم المضطرب الذي تقسمت فيه الناس
معسكرات متقابلة متلاحية من المذاهب والعقائد التي صبغت كل
منحى من أنحاء الحياة أن نسمى للقضاء على آفة المصيبة ،
ونتهود الإنصاف . إنصاف الخصم وكأنه صديق ، فالمنصف إنما
يعنو للحق ، ويعنو لنوره في العقل ، فيشهد لنفسه بالفضل
وحسن الرأي حين يؤدي الذي الحق حقه مهما اشتجر الخلاف
أو لجّ الخصام . .

وما أرى شريعة أدعى للإنصاف ، ولا شريعة أنقى
للإجحاف والمصيبة من شريعة تقول :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا » !

فأى إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا
المبدأ ، أو يأخذها بدين أقل منه تسامياً واستقامة . . ؟
أجل ! نعدل ولا نجور ! فذلك حق أنفسنا علينا ، وحق

— ٢٧ —

عقولنا علينا ، وحق ضمائرنا علينا ، قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك . . .

وما أرى الشانى^١ يضير خصمه حين يجور في الحكم عليه ، إلا كما يفقأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسوءه مرآه . . .
ولست أحب ذلك لأحد ، بل إنى أرى مستقبـل هذه البشرية منوطاً باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم ، حتى يرتد بنو حواء إخوة يختلفون في مودة ، ويتباعدون إلى تقارب ، ويفيئون في نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم به ، وهو الحق والعدل . .

وإنى لأسأل من يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير دينه ، أما يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجحود والجور ؟ . .

ولست أنكر أن بواعث كثيرة في صباى قربت بينى وبين هذا الرسول ، وليس في نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتفكر له ، بل إنى لأشرف به وأحمد له بوادره وعقباه . .

ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئاً من التفهم ، وزين لى من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المشرفة ، وجعلنى أعرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة أو المنجنية التى نظر بها

— ٢٨ —

كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربي ، ولكن
حين أحسكم إلى العمل ، أرى الخير كل الخير فيما جنحت إليه .
فلخير من يشوه المشوهون كل جميل وكريم . من مفاخر
البشرية المثلثة بالقروح والمخزيات ؟

ولخير من يثلب الثالبون كل مجيد من هداة هذا الجنس
الفقير إلى المجد ، المثقل بالخشاسة والحق ؟

ألا إن كل محب للبشر ينبغي أن يكون شعاره دوما :

— مزيداً من النور ! ومزيداً من العظمة ! ومزيداً من
الجمال ! ومزيداً من البطولة والقدوة !

وبدافع من حب البشرية أهدمت على تسطير هذه الصفحات ،
وسيان بعد هذا أن يقول عنها القائلون : إنها شهادة حق ، أو رسالة
حب ، أو تحية توقيير وتبجيل ، فما كان كآحاد الناس في خلاله
ومزايده ، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل ،
فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل . ويحيي فيه الرجل .

الدكتور نطشى لوفى

١٠ ش ابن سيناء

مصر الجديدة

١٩٤٨ — ١٩٥٩

صبي في المسجد . . .

صبي قصير ، نحيل ، عصبي الملامح ، واسع العينين ، تطل
منهما نظرة تطلع ، وفي ثيابه إهمال ، وفي يديه آثار حبر ، ورباط
حذائه مرسل يكاد يتهثر به وهو يمشي ، وسنّه لم تتجاوز السادسة
إلا قليلا . يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى
مسجد في السويس ، قريب من مبنى المحافظة بها ، لا يلوى
على شيء .

ويتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذي يواجه المسجد ، ليرى
الشيخ جالسا ، بقامته المفرطة في القصر ، وجهته المفرطة في
العلو ، وبشرته البيضاء المحمرة ، وثيابه النظيفة الناصعة ، ولحيته
الصهباء التي يخالطها بياض كثير .

ويقري الفتى أستاذه الشيخ السلام ، ويهش الشيخ للقائه ،
ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن ، يفتحها ،
ثم يتحسس عقاربها ، ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانها
الأبيض . . وترسم على وجهه ظلال ابتسامة ، يكاد الفتى يراها

في موضع عيني الشيخ ، لولا أن هاتين العينين أغلقتهما مرض في الطفولة الباكرة إغلاقاً أبدياً .

ويقبض على قلب الفقي قابض ، لم تذهب به الألفة المعادة كل يوم . . وينظر بحسرة إلى صفحة السماء الصافية ، ويقشمر بدنه ويتهد .

ما أنكد هذه الآفة . . إنه ليؤثر الموت على هذا الحرمان الوجيع ، من ومضات النور ، وهمسات ظلاله . . وهي تبدي أشفه وأشوه المراثيات . . حتى هذه البقية من الروث التي تركها حصان كان يجر عربة عابرة . . فكل شيء عزيز على العين ، حتى ولو لم يكن جميلاً مرغوباً . . لأنه يبدي لها نورها .

ويتأبط الشيخ السكيف ذراع الصبي . وإنه ليضارعه طولاً أو قصراً ثم يدب بعصاه عبر الشارع . . والصبي لا يخطيء نظرات الفضول من الحلاق ، وزبائنه ، وعابري السبيل . إلى أن يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد ، ليمدآ درسهما اليومى من بعد صلاة العصر ، إلى صلاة العشاء .

ففي مدينة السويس الصغيرة ، سنة ١٩٢٦ ، لم يكن أحدهم أهليها يجهل من الشيخ سيد البخارى ، إمام مسجدها ، وعالمها وفقهها . يجالونه ويرهبونه . فإن له لعلماً ورأياً . وإن فيه

— ٣١ —

لشجاعة في الحق ، وذراية في المنطق ، وأنفة تدخله لديهم
مدخل الكبر الذي لا يغتفر أن كانت به كالشيخ خصاصة شديدة ،
يداريها بتجمل أشد .

ولم يكن أحد من أهاليها يجهل كذلك من الصبي الصغير ،
ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس ، فيه وسامة وأناقة ، وفي
لسانه عذوبة وذلاقة . . وإنهم لمعرفونه رجلا قبطيًا صليبة . .
يؤم الكنيسة يوم الأحد .

وفي مدينة كالسويس يتسائل الناس عن النازحين إليها
والغرباء من الطارئ . وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبي
أرومة معرفة في صناعة القسوس . فكم له من جد من ذوي
الطبال السود والعاهم السود . . فلا شك إذن في قبطية هذا
الصبي الذي يروونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم
الشيخ . . وأن الحيرة لتستبد بهم ، ثم تأخذهم نافلة من الغيرة ،
يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون . ومن أمّ منهم المسجد لصلاة
المغرب ، رأى الشيخ ينفذ يده من درس الفتى في مؤخرة
المسجد ، ويتقدم فيؤم المصلين ، ثم يعود ليصل من الدرس
ما انقطع . والفتى ينظر إليهم مصلين ، ويسمع لما يتلى في الصلاة ،
وفي عينيه ذلك التطلع القلق فنههم من يزورّ عنه ، ومن يحملق
فيه بفضول .

وخرج بعضهم من النجوى إلى العان ، فجاهر الشيخ بما في نفسه ، وراجعهم فيما يفعل . فإن كان حبا للتدريس فقيم رفض التدريس لابن فلان وفلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير ؟ . وإن كان حبا للمال ، فقيم خطبه التي يحارب بها التقرب للأولياء ، وتقديم النذور ، ورفع صندوق النذور من مسجده ، وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء ؟ .

ويغضبها الشيخ غصبة لله وبيوته ، ولسباحة دينه ، ويمد ي من ذلك ما يفهم سامعه . ولكن السامع ينهض غير قانع مما سمع . لأن حجة العقل لا تقنع القلب . والقلوب التي لا يعمرها نور الحب ، لا تستجيب إلا للأثرة ، والأثرة تنفذى بالعداء بالولاء . ويضمر الشيخ في نفسه أمرا ، فإذا كان الغد أرسل إلى ذلك المعارض أن يوافيه بعد صلاة العصر لأمر . ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد ويستمهله الشيخ قليلا ريثما يفرغ له . ويتابع الدرس . وكان موضوعه تفسير سورة الضحى . وابتلو الصبي السورة بلسان قويم ، وإيقاع سليم . ويختمها بـ «صدق الله العظيم» . ثم يشرع في تبين معانيها ، مستشهدا بسيرة الرسول الكريم . والشيخ يناقشه حيناً ، ويوجهه حيناً آخر ، ويستوضحه حيناً ثالثاً . حتى إذا بلغ الموضوع غايته . . وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلا :

— ٣٣ —

— كيف بنوك يا فلان ؟
 — بخير يا مولانا .. يقبلون الأيدي ..
 — تعرفني يا فلان أمقت تقبيل الأيدي وأخذل عنه الناس ..
 — أعرفت فيم أرسلت إليك ؟ ..
 — فأطرق الرجل وقال :
 — عرفت يا مولانا .
 — انصرف راشدا ..

ونفض الرجل عييا . وتجرى أن يمصفح الصبي الصغير في
 مودة سابعة أشبه شئ بالاعتذار ..

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم — وكان ساعاتيا له دكان قريب
 من المسجد — يستقبله بالتحية التي يلقى بها الشيخ ، كلما مر به
 قادما أو منصرفا .. ويكاد يلمس في صوته وإيمائه هزة الخشوع .

وكان والد الفتى — أكرم الله مثواه — شديد الولوع
 بالفصاحة والفصحاء ، اتفق له شئ من قرض الشعر في صدر
 شبابه . وآمن أن ولده المبكر ينبغي أن يصيب من ينابيع الضاد
 وبلاغتها أكبر حفظ مستطاع . ورأى هزال ما يتاح لطلاب

(٣ — محمد)

المدارس من ذلك كله فعمد بولده إلى ذلك الشيخ الذي التقى به في
 دكان الحلاق فبهرتة منه شخصية مشرقة ، وذهن رحب ، وسماحة
 ما كان يتوقعها في أحد الأشياخ فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات
 من الإنجيل وهو في حديثه الدارج مع الناس من حوله لا يحيد
 عن الفصيح من اللفظ والجزل من التراكيب فسكأنما خرج الشيخ
 لثبوة من سوق عكاظ ! وهم الشيخ أن يمتدّر بزهد في التدريس ،
 لولا أن الوالد ذكر له أنه أقرأ ولده كلية ودمنة قبل أن تسمح
 سنه بدخول الدراسة الابتدائية . وأن الفتى — وهو أصغر
 طلاب مدرسته وأقصرهم قامة — وجد نفسه في مؤخرة صفوف
 الفصل في أول يوم . فرفع يده وقال للمعلم — وكان معهما —
 بلغة فصيحة :

— أريد أن أجلس بجوار السبورة ! ..

فضج التلاميذ بالضحك ، وقال المعلم ضاحكا .

— لك ذلك أيها الفيلسوف العجبر ! .

فذهبت مثلاً ! وصارت هذه كنيته بين أترابه وأساتذته ،
 لأنه يأبى أن يحدث المعلمين إلا باللغة الفصحى ..

— واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن ، وتهذب نفسه
 بالمعانيات وعيون الشعر ..

فأخذت الشيخ هزة وقال :

— أما وأنت لا تريدنى على تدريس تلك المناهج السقيمة
والخوض إلى تلك المدارك الضحلة فهذا مطلب تطيب به نفسى
وينشرح له فؤادى .

— والأجر ؟ .

— أمره لك .. وأكبر جزائى أن تزهرا لاهربية شجرة مشمرة
في قلب فتى أريب ، في زمن أوشك اللسان العربى القويم فيه أن
يعز وجوده كالسكبريت الأهر ! . .

ووجد الفتى في أستاذة المكفوف خزانة أدب وعلم وفقه
وفلسفة .. وخلق ! . .

كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب . .
وكان التعليم بالضرورة شفويا . ولا بد فيه من ضبط مخارج الحروف
 وإقامة النحو ، وتجنب اللاحن ، وتوخى الجزالة ، فتعلم الفتى أن
يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وبدأ الفتى يحفظ القرآن . ويقف عند كل آية ، ويملى عليه
الشيخ موجزا لتفسيرها ثم يلى عليه ما يتطرق إليه ذهنه الخصب
بصددها من الأمثال السائرة والشعر المشهور . فتعلم الفتى كيف
يربط المعنى اللغوى بالصورة الجمالية والذوق الأدبى .

وخرج الفتى مبرزاً في امتحان نصف السنة وأتى شيخه فرحاً مرحاً . فجعل الشيخ موضوع درسه ذلك اليوم بيتاً من الشعر الحكيم ، ثم آية من القرآن الكريم . أما البيت فهو :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وأما الآية فهي : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا »

وكان على الفتى أن يعالج الموضوعين بلسانه ، والشيخ يستدرجه ويحاوره على سفة سيدنا «سقراط» عفا الله عنه . . إلى أن وصل إلى غايته من تصغير الغرور إليه .

وأناه بعد ذلك بأيام حزينا مغيطاً . فقد دعاه أستاذه إلى السنة النهائية وطلب إليه أن يصحح - وهو التلميذ بالسنة الأولى - خطأ طالب طرَّ شاربه وأوتى سطة في الجسم ، بعد أن عجز كل تلاميذ المرقة النهائية عن ذلك التصويب ، فأجاب بداهة ، وأمر الأستاذ التلاميذ جميعاً أن ينهضوا له واقفين ويحيوه تحية التعظيم ففعلوا صاغرين . . حتى إذا انقضى اليوم المدرسى ، تربصوا له بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجملوا يتناقضونه بالأرجل وصبوا على الصغير سخريتهم وأذوه باللفظ واليد ، حتى تمزقت ملابسه واهجر قماءه . ولولا أنفته الشديدة لفاضت عيناه .

وعرض الشيخ على نواجذه ثم قال :

— الموضوع الذي سنجعله مدار حديثنا اليوم هو : « آية الفضل أن تعادى وتحسد » و :

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر، حتى إذا انتهيا إلى قول أبي الطيب :

وإذا أبتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بآني كامل
استشعر الفتى العزة بعد الذل ، والكرامة بعد الهوان . ولما
آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم ، انتقل إلى جرح من
نوع آخر : إلى جرح أحدثه الحقد ، ونزعة فطرية إلى الثأر ،
فقال للفتى :

— أريد أن تعد لمجلس العمد قول أبي الطيب :

وأتمب من ناداك من لا يجيبه وأغيط من عاداك من لا تشا كل
وأيضاً قول المسيح عليه السلام : أبت اغفر لهم فإنهم
لا يدرون ما ينعملون !

أمن عجب بعد هذا أن يكون الشيخ ملاذ الفتى في كل ملمة ،
ونبراسه في كل مدلهمة ، وقودته التي يأتى بها عقلا وقلبا
وعاطفة وضميراً ؟ . . .

لقد أصبح الشيخ القزم عملاقاً ، وسكن إليه الفتى واطمأن ،
وأخذ نفسه بأدبه وفضله . أمره الأمر ، ورأيه الرأي ..

وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد ياتمس الشيخ ، فعرف
فيه الفتى خادماً أستاذه . فقال له :

— « الولد » حضر يامولانا .. الولد خادمك .

فأشاح بعنقه كمادته حين يضيق بشيء سمعه . وأدنى الغلام
وتساراً برهة ثم انصرف الغلام . وعندئذ قال الشيخ :

— ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد ! كان الرسول
صلى الله عليه وسلم يقول فتاى وفتاى ولا يقول عبدى وأمتى ..

وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع في
معاملة خدمهم . ثم قال له في حزم :

— أرجو أن تفكر حتى غد ، وعندما تخلو إلى نفسك في
المخدع ، ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدماً ؟ فإنه مثلاً
ابن أب وأم . والدهر الذى جاز عليه جار على سائرنا .
وأحب أن تفكر في قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكه أناخ بأخريتنا
وأرق الفتى ليلته وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حي ،
وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادماً في بيت كبيتة

هذا . وطار قلبه شعاعاً . وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخدام
في بيته رفيعاً رقيقاً . ولما رأى أمه تسبه وهي تمسح له قضاء حاجة
تاربها ، وأسمعها طرفاً مما وعاء من آداب الرسول وصحابته في
هذا السبيل . فاحتقن وجهها وأتت أباه فأخبرته . ووعدا أن
يكون له مع الشيخ حديث في ذلك النهار .

ولما حل العصر ، قيل للفتى : إنه لا درس اليوم ، وذهب الوالد
فلقى الشيخ وقال له : إن بالفتى وعكة . ثم تطرق الكلام إلى بيت
القصيد . وأدرك الشيخ مراد الرجل ، فقال محمداً :

— هل ترضى مني أن آخذ ولدك بنير الأدب الأكل والنهج
الأفوم وأن أعرف الحق وأحيد به عنه ؟
— بل لا أريد . .

— وإن أردت أنت فاني أريد ! لأن ذلك هو الغش البين .
فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقاً وقد عجز عن ذلك الملوك
والسلاطين وأصحاب الملايين من قبلك ؟

— ولكن الله يامولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض
درجات . .

— ويداول الدنيا بين الناس ! ثم أما قرأت كتابك ؟ ألم
تجد فيه أن المسيح عليه السلام - وأرايكم فيه ما تعلم ! - غسل

— ٤٠ —

أقدام حواريه ؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وإنما التفاوت عندنا حين نفرط في لباب الدين لنتملق بزخارف الدنيا .

وأعاد الرجل على زوجه حديث الشيخ ، وآذنها أن الفتى مستأنف درسه منذ الغد : فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة الرقيقة أتاحه له الله في صورة هذا الشيخ .

— وإني يا فلانة لأستحي — والله — أن يظن الشيخ بنا دون هذه الآداب .

وكانما همس الهامسون في آذان الأيوين كما همس هامسون من قبل في أذن الشيخ . . ولعل غيوراً من أهل الخذلقة قال لهما : — كيف تخاطران بالفتى هذه المخاطرة ؟ فإنه يخشى أن يفتنه الشيخ عن دين آبائه .

ووجد الفتى أبويه يقرآن له فصولاً من الإنجيل كل يوم . ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة . وحملت أسرار المقيدة تصب في دماغه صباً . فاستعصى منها على ذهنه ما استعصى ونافس فقيل له : إن الإيمان في التفكير يسوق إلى الكفر ، وأن المناقشة سبيل الشك . ومن دخل الشك قلبه فارقته نعمة الإيمان ، وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء .

والتمس الفتى عند شيخه الهداية ، فتخرج الشيخ أن يطرق الموضوع ، بيد أنه حدثه عن العقل . وأنه الإمام الذي أنعم الله به عليه . وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل . وأن اليقين الذي لا يصمد للشك يقين زائف . والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال . . وحدثه الشيخ في ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة ، وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم في حياته من بعد . حدثه عن « غاندى » . وكيف يصلى بآى من القرآن والإنجيل والتوراة والبرهاوترا . وحدثه عن متصوفة الإسلام ، وعن محي الدين بن عربي . . وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور .

— اقرأ يا بنى كتابك بنفسك . واحتكم إلى عقلك ، واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء ، وعن فعل السوء ، وعن تفكير السوء

وسمع الفتى بعد ذلك واعظاً مشهوراً حضر إلى المدينة واحتشد القبط لسماعه احتشاداً مشهوداً ، فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت ، سماهم الذئاب الخاطفة ، وحض على اختصامهم . فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحداً أو يرد عليه السلام ! . .

وصورت الخيلة الماشطة له أولئك الناس ذوى أنياب

— ٤٢ —

كاشرة ، ومخالب كاسرة . وذهب إلى شيخه بذلك الحديث فزعا .
فاغتم الشيخ وقال :

— أوافق أنت مما سمعت يا بني ؟ .

— كل الثقة يا مولانا ..

— أعوذ بالله ! إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة
ولامراء ! .. فالمسيح الناصري يقول : أحبوا أعداءكم وباركوا
لاعنيكم ! .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! إقرأ إنجيلك يا بني
وافتح له بصيرتك .. واصدد عن مفسري سوء ما استقطعت .

ووعى الفتى درس شيخه ، فتزوج بعد عقد ونصف إحدى
بنات « الذئاب الخاطفة » المزعومين !

وحفظ الفتى القرآن لتسمع ، ووعى المعانيق وديوان الحماسة .
وقرأ اللزوميات . واقتن بأبي العلاء والمتنبي على وجه الخصوص
وأصبح وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه .
يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبي طالب . والشيخ من وراء ذلك
كله أعز عليه من أهل الدنيا جميعاً .

أتاه ذات يوم باكياً . فسأله ما به :

— ٤٣ —

— سعد يا مولانا .

— رحمة الله على الزعيم الجليل ! ماذا ذكرك به ؟ ..

— ليس سعدا هذا .. بل الآخر ..

— ومن ذاك يرحمك الله ؟

— هو كبش كنا نربيته في البيت .. غافلوني وذبحوه للعيدا ..

ولما بكيت سخروا مني .. ولم يكفهم أن يأكلوا منه .

فأرادوني - وألحوا - أن أكل منه مثلهم .. فأبيت ! ..

ولم يضحك الشيخ بل رق للفتى رقة واضحة .

— ولماذا يسخرون منك ؟ لقد بكيت من أحبت ! ..

— أليس كذلك ؟ .. وقالوا حرام ألا تأكل مما أحل الله .

— ليس حراماً أن تحب شيئاً خلقه الله .

— وقالوا أتحب خروفاً كأنه أخوك ؟

— الحب يا بني شيء جميل جليل .. ولو كان لشيء تافه

ضئيل ؛ ألا يحب الواحد منهم أصصاً من الزهر ؟ .. أو حلية من

الجوهر ؟ . لا تثريب عليك فيما أحبت ! .. فليست قيمة

الحب فيما نخبه ، بل في حبنا له .. وإن لك لقلبا سخياً

وفؤادا ذكيا

وأصبح الشيخ أقرب إلى الفتى من آله وذويه ، بهذا الفهم ،
وهذا الحس .

* * *

وأصيب شقيق للفتى في مهده بمرض طويل ، أكل علاجه
الأخضر واليابس ، ثم مات فركب الأسرة دين وسافرت أم الفتى
— وهي حامل في شهرها الثامن — إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية
حفيدة القسوس جزءاً من حقها القانوني في وقف جدتها . وكانت
أم الفتى وحيدة أمها . ولبثت الأم في سفرها ثلاثة أيام أحس
الفتى فيها بالوحشة . ثم عادت الأم من سفرها خاوية الوفاض ،
دامعة العين . وقد أبت عليها أمها الثرية حقها ، وهي بين الشكل
والحمل والحاجة مهيضة الجناح مضضعة النفس .

وقررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة .
فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا وقطعت تيار الكهرباء واستغنت
عن الخادم والغاسلة . وأقبلت الأم الحبلية تعمل بيديها كل شيء .
حتى الخبز ! .. فحز ذلك في نفس الفتى الذي يكاد يعبد أمه من
دون الله ..

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس . وكان الشيخ قد
عرف طرفاً من ذلك الحديث من الفتى الذي لم يكن يطوى عنه

— ٤٥ —

أشجانه . فإذا به يسكت عندما فاتحه أبو الفتى فى انقطاع ابنه .
وينصرف الأب إلى داره ، وإذا بالبواب يطرق بعد قليل . وإذا
بالشيخ الضرير يقوده صبي الحلاق . ويبادر الوالد قائلاً :

— ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة
أو نحوها .

وعرف الفتى أن الشيخ عازم أن يستمر الدرس ، بغير مقابل ،
وأن تلاففه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلهينه صوناً لعزته
وزيادة فى مروءته .

ولم يسع الفتى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جده تنتمى
للمسيح وتتشدد باسمه . وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد
وآله خمس مرات فى كل يوم ! . .

ليس البر وفقاً إذن على دين دون دين .

* * *

وفى العاشرة رحل الفتى عن السويس ، ولم ير الشيخ بعدها
ولكن الشيخ ظل قائماً فى عقله ونفسه ولسانه . . فقد صاغ الشيخ
فى الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل
وتقدس العقل وشجاعة الرأى . .

الآية الكبرى

وقرأ الفتى كتبه . وأعاد قراءتها في الحين بعد الحين ، فقد كانت وثيقة الصلة بأزمة وجدانه وعقله وهو يقبلهما بين السماء والأرض . لا تسكن نفسه من شك ، ولا يسكن عقله من تطلع .. وأعياء عقله أن يجد تفاوتاً في نسق الكتب الموحى بها وسياقها . فهي — بلا استثناء — تنتهى إلى ضرورة الإيمان الذي ينبع من القلب وبفرض أضراره على كل معتقد بدين .

وهنا وقف الفتى الذي درج إلى الشباب وقفة لم يكن منها مناص : إن تكن هذه الأديان صحيحة ، فبأي حجة وبأي مقياس يمكن الطعن في صدق رساله محمد ؟

مامن نبي حمل إلينا توكيلاً موثقاً بأنه ينطق بلسان الوحي . وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به . . وأما المعجزات فلاحجية لها إلا لمن شهد شهود العيان . وبيننا وبين ذلك أجيال وأجيال . فقتبقي بعد هذه الآيات المغيرة الآية الكبرى التي لا يثبت بغيرها صدق ، ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير ، مهما بلغت درجته من الإعجاز . وهذه الآية الكبرى هي صدق الكلمة من حيث

هى . فإن الحقيقة آية نفسها ، تحمل برهانها فى مضمونها ، فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يبينها هزىلا واضح البطلان .

إن موقف الناس من الوحي واحد أيًا كانت الرسالة الموحى بها والرسول المخبر عنها : لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهاناً عياناً على وحيه كى يطلب به محمد . فمن اعترف بوحي السماء إلى رسول من البشر ، لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحي على محمد من حيث المبدأ . فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه .

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحي من حيث المبدأ ، إلا النظر فى مضمون ذلك الوحي . فإن كان هذا المضمون حاوياً آية صدقه فى ذاته . وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها ، فلا مفر من الإقرار بصدقه .

ومن هنا وجب النظر النزيه فى رسالة محمد ، والبحث فى مضمونها ، لنتلمس فيها آيات الصدق التى يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين ، ولنرى هل فيها ما يدعو للريب ، ويبرر دمعها بالزيف أو الدجل أو البطلان .

ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على إنصاف ، ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع .

إن السلمة الأصلية هى التى تؤدى للناس مالا تؤديه سلمة

أخرى وإن كانت تشبهها في بعض الوجوه . وليست تقليداً أو
تزييفاً لسلعة سابقة عليها . . بحيث يكون غيابها نقصاً واضحاً
لا محل فيه للإنكار .

عرف الناس السفينة ذات المجذاف ، وعرفوا السفينة ذات
الشرع . ثم عرفوا السفينة التي تسير بالبخار . وكلها سفن ،
ولكن الخلاف بينها واضح فيما تؤديه للناس من خدمات .

كذلك العقائد والأديان . كلها عقائد غيبية . تحدد صلة
الإنسان برب هذا الكون . ولكنها تتباين بوجه من الوجوه . .
وهذا تلميل توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر
ومستويات إدراكهم ووعيهم العمراني .

لزم إذن أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها . وأن
يكون هذا الطابع المميز هو « سبب وجودها » أو موضوع وجودها .

فهل للإسلام هذا السبب ؟ وهذا الموضوع ؟

وبعبارة أخرى . أن الوظيفة تخلق العضو . والحاجة تخلق
السلعة . فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع
معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحدد احتياجات التطور
البشري ، ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفاً أو فضولاً
أو اصطفاً لجأ إليه مغامر أفاق . .

ثم يلزم النظر في الإسلام . وهل جاء مؤدياً لتلك المهمة
والرسالة ؟ فإن صح ذلك ، كان عقيدة صحيحة جاءت في ميقاتها
الطبيعي لتقويم بدورها أو وظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشري
إن كل من آمن بالأديان ورسالتها . وبالعقائد ووظائفها ،
لا بد له من اتخاذ هذا المقياس الموضوعي الذي يمدل في النظر
إلى العقائد بعمامة وإلا كان محض وارث لعقيدته متمسب لها
عصبية عمياء .

وما على المنكر إلا أن يبين لنا مقياساً آخر نعرف به وظائف
العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل
دعوة محمد .

إن قال بالوحي هناك ، فما هو دليلك على صدق وحي من قبل
محمد ، بحيث يفتقر وحي محمد إلى ذلك الدليل ؟
لم ير أحد ملك الوحي هابطاً على من قبل محمد ، حتى يطالب
بظهور جبريل وهو يهبط بالوحي عليه .

وإن قال : إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من
مضمون الرسالة ومؤداها ، فقد نفى الحكمة من التعاقب ، بل نفى
الحكمة من الدين عامة . فإن الشرائع التي تتكرر بغير تعديل قول
معاد ، في غير حاجة إلى إعادة .

فإذا تذكرنا أن البشر يتطورون ويتقدمون في وعيهم
 العمراني ، كانت الإعادة المذكورة تقصيراً . فلا يبقى إلا أن
 الشرائع السماوية تسير البشر في تطورهم ، كما أن غذاء الإنسان
 يسير المرء في تدرجه من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة .
 وهذا يردنا إلى تمايز الرسائل الدينية ، وتفرد كل منها
 بخصوصية هي موضوع وجودها أو هي وظيفتها .

ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول : هذا
 رأي وكفى ! .. ومثله لا يعول له على رأي ، لأنه مسكبر بغير
 عقل ، فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل .

دين شعب

دين بنى إسرائيل ، وإن كان دين توحيد وتنزيه ، قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب ، فهو إذن ليس الدين الذى يهتدى به الناس كافة ، ويجدون فيه شعب حاجتهم الفطرية إلى العقيدة .

والدين الذى يختص به شعب بعينه لابد وأن تتمثله سريرة ذلك الشعب ، فتكون سيرتهم فى العمل به كسيرتهم أصلاً ، بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبعهم . وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم . وكانوا أشقانا فى الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة ، فينفسون على أهل البلاد الأصلاء أن لهم وطناً وبأساً وسيادة وغلبة .

والناس منذ قديم يلتمسون فى أربابهم النعمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة . فالتمسوا فى الإله الواحد أن يختص بهم ، لا يعبده أحد سواهم . وأن يغلبهم من عداهم من الخلق ، وأن يمكن لهم فى أرض العباد وراقبهم ...

والدين — من حيث هو دين شعب — حرى أن يعنى بسن
القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم . فتعوضوا عن
أهدافهم التى صدم عنها أهدافا أخرى . فأقاموا الهياكل
كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها . وليقدموا القرابين
والذبائح كما كان يقدمها عباد الأوثان ، مع فارق واحد هو أن من
يتوجهون إليه بقرايبتهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو
الإله الواحد الخالق القادر . . إله إسرائيل .

ثم أسفَّ الشعب المسف بالتوحيد نفسه حتى جعلوا الأوثان
فى بيوتهم ، يسمونها « الطرفيين » . وحتى أقيمت لصنم البعل
وغیره مذابح فى قلب هيكلي سليمان .

وشعب هذا شأنه لا يصد عن الإسفاف والانتكاس إلا
بالتخويف وهزيم النذير بين يدي عذاب شديد . فامتلات أقوال
أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة
الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود . وأنه
القوى المنتقم الجبار الغضوب .

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب ، ويطلعنا على ما تصير
إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم
المنافع والحرص على الدنيا . فهم لا يبنون رضوان الله خالصة

لوجهه ، ولا يمدونه خالصا لوجهه ، ولا يجاونه عن هذه المراسم
المادية في تقديم القرابين والذبايح . إذ لا وجود في إخلادهم إلا
للمادة وما يتفرع عليها . أما الروح والضمير . أما النظرة الشاملة
لبنى الإنسان كافة . أما الإخاء الذى يربط الأحياء برباط واحد
هو رباط الوجود الحى . فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا .
فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا فى المعاملات يستحلون
به أموال سواهم من الأمم وطقوسا فى العبادة هى أيضا ضرب
من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات .
تنهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو . أو زيادة فى إدرار الرزق .

دين قلب

ولكن العقيدة حاجة روحية أصلا . فلن تطول القناعة
بالعمود دون التحليق ، ولن يطول الطور الذي يكتفي فيه بعقيدة
يختص بها فريق من الناس دون فريق . فليس للروح والضمير
وطن ولا جنس . والعقيدة التي يقنع بها الضمير وبطمئن إليها
لا بد أن تفتح الباب لجميع الشعوب ، وأن تفتح على الخصوص
أمام الناس آفاقا عالية ، تتجه خلالها الروح إلى الله ، لأنه
المرهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب ، بل لأنه مصدر الحياة
والوجود والمثل الأعلى والمطلب الأسمى للاعتقاد ، تتجه إليه
النفس مشوقة غير مسوقة ، ولا تستغنى بالراسيم والمجسمات
المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذي
لا يتجسم ولا يدرك بالحس . ففي الاتجاه إليه سبحانه سمادتها
الكبرى .

وبهذا ، كان الطور الطبيعي للإنسانية أن تتطلب الهداية ،
في رسالة المسيحية التي لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب . بل

تجعل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل إنسان ،
فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه ، ولا يبقى للحس وجهه
سلطان على قلب ذلك المحب ، ولا الطقوس قيمة . لأنه إذا حضر
المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى .

وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نبوص كلامه ،
لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل .

فالمسيحية بهذا الاعتبار هى دين القلب الإنسانى من حيث
هو كذلك ، بصرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشموية ..

ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس ، كما
خلت من تشريع المعاملات ، لأن موضوع المعاملات والحياة
الدنيا برمتها لم تدخل له فى حساب بشقيها من مال وقصاص .

ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجاً واحداً متساوفاً .
لأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة هى بطبعها عقيدة
الأفراد الأفذاذ . أما السواد من الناس ، فالحس على قلوبهم
أبداً سلطان غير مجرود ولا مردود .

لهذا بقيت المسيحية فى حقيقتها دين قلة من الأفراد ميسرين
لها . وكانت تسيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا
ومعاناتها . أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية

— ٥٩ —

وعقائدهم المادية طيلاس العبادة الجديدة ، فتمثلوها كما تصورها لهم
عقولهم . وإطمأنوا إلى هذا التصوير .

ولهذا لم يستطع السواد الارتفاع إلى المستوى الروحي العالي
الذى هو مضمون دعوة السيد المسيح .

ولم يساهوا — لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان المادة وسلطانها
على تفكيرهم — من ظهور عقابيل التجسيم والتمنطس فى المواسم
تتخذ عناوين الدين الجديد وتزىا بزيه ، لأنها نظم تقابل حالات
النفس التى لم تنضج بعدُ لدعوى الروح الخالصة من قييد
الجسد وشبهواته وأوهاقه .

دين البشر

ولم يزل الناس بحاجة لإذن إلى عقيدة جديدة ، يجتمع إليها العقل والقلب جميعاً ، وتصحيح ما تَرَدُّوا فيه من الأخطاء في تفهم ما سبق من عقائد ورسالات .

إن الناس بحاجة بعدُ إلى دين يؤكد وجود الله ، وأنه خالق الخلق ، وأنه الكامل المنفرد بالسَّكَّال ، بيده الأمر ، وهو على كل شيء قدير . ويؤكد وحدانية الله تؤكداً يقضي على عقابيل التعدد في تصور الإله . . ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله ، حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذي طَلَمَا رَمَوْا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم .

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة .

أما من جهة موعودها من الناس . فينبغي أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة ، لا فرق فيهم بين شعب وشعب ، ولا بين جيل جيل ، ولا بين طبقة وطبقة .

وينبغي كذلك أن يكون في هذا الدين الجديد مقنع للممتاز

الميسر لأشواق الروح ، وأن يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا
ملحظ يلفته إلى آفاق الروح ، وشعره أن ثمة ارتباطاً بينها
وبين السعى في سبيل الدنيا ، فيجد لهذا السعى مدداً من شايين
لا يحقر في عينيه مطالب الحياة ، ويحمل في قلبه مؤثلاً للشعور
بالرضا والكرامة ، لأنه استطاع أن يكون صالحاً وهو من هل
هذا العالم المعنيين بأموره ومهامه ومطالبه .

لن تكون الحياة الدنيا في هذا الدين الجديد رجساً ، بل هي
من ملك الله وطيبات نعمائه . فאלله صاحب الدنيا كما هو صاحب
الآخرة . وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة
ومطالبها . وهو فاطر طلبها في النفس . . . وإنما هي الحدود
الشرعية يفرضها الله في دينه فإذا السعى في سبيل الدنيا على سنن
تلك الحدود وقد أمسى تحصيلاً للمثوبة في الآخرة بالطاعة
والإحسان .

وللمفكر والمؤمن معاً في الدين الجديد مكان أولها بنهني
أن ينتهي إلى ما ينتهي إليه الآخر ، لأن الحق واحد في جميع
السرائر والضمائر متى أحسنت التماس والاهتمام .

وهكذا لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصاح للسكافة ،
العامّة منهم والخاصة ، يستمر كل منهم أن له عقيدة يطعن إليها ،

— ٦٣ —

وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا ، وبالأخرة . بالله وبالإنسان ،
فالناس أمة واحدة في هذا الدين الجديد . . .

هذا الدين المرموق هو دين البشر . . .

وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين . .

وسنرى كيف نهض الإسلام بهذه الرسالة التى لَبَّتْ حاجة
البشر الطبيعية فى ذلك الطور المعين من أطوار الاعتقاد . . .

الله

لا يدع القرآن شائبة من ريب في مسألة وحدانية الله ، فجاء
في (سورة الإخلاص) :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ »

ولا في تنزيهه عن الشرك والتعدد :

« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

وفي ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل
الكتاب أيضاً ... فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته .
وأنه ابن الله . وأن الإله الواحد ، جوهر واحد ، له ثلاثة أقانيم
هي الله الأب ، والله الابن — وهو المسيح — والروح القدس .
وشبهوا ذلك السر الإيمانيّ المسيحيّ بالشمس ، وكيف أنها حقيقة
واحدة ، تقع على الحواس قرصاً ، ونوراً ، وحرارة ..

ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات

حواريه (الأنجيل) إشارة إلى متى من ذلك . بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ « ابن الإنسان » .

وأما البنوة لله عز وجل ، فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق ، وبمعنى يشمل البشر كافة ، حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادئة بقولهم « يا أبانا الذي في السماء » . . . وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر ، كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله . فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا : « إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله » لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر ، وأحبوا الله ، وأحبوا إخوانهم في الله ، حتى أعداءهم .

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل في رعاية الله وعنايته ، بما يتيحه من الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة . وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل ، فلا ينبغي أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجأها وزخرفها . . . وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع الكائنات ، وما أبعد هذا أن يكون ذلك « السر » أو « اللغز » المعقد الذي اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين الكهان وعلماء اللاهوت .

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة بل فتن بين صفوف أتباع

المسيح والمتسبين إليه . وجمعت المجامع ، ووفعت المذايح وصار
الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة ، لا إلى الألفة واجتماع العقول
والقلوب على عقيدة يعلمأن الجميع إليها .
وناهيك بعقيدة لهاها المحبة حتى الأعداء . تكون مشار
ذلك كله .

وناهيك بعقول السواد ممن غبرت لهم في الوثنية جذور عقلية
وحسية منذ ألوف السنين ، كيف لا تنزلق إلى التمرك من باب
هذا « السر » الذي يجعل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم !
لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ، ولا بد من نفي اللبس
وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة ، وهو التوحيد مطلق
التوحيد .

إذن تعين أن يأتي الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الويل:
« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . . .

لم بلد ولم يولد . فأقرب إلى العقل أن من يلد أخرى بأن
يولد . . وما كان سبحانه فرداً في جنس ولا واحداً في سلالة من
نوعه . جانسا ! بل جلّ عن النظراء والأكفاء . من ذا الكفاء لله؟
وكان لابد للدين أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية

— ٦٨ —

الله بالخلق ، وإلى قدرته ، وإلى سلطانه المطلق على السكون كله .
فقرر القرآن في عزم وحسم أن الله « خالق كل شيء » . « وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .

هو الخالق ، وهو المدبر القادر . لم يخلق السكون ثم نفى
منه يده « أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ »

ولا يدع القرآن في ذلك شكاً ، فهو يقرر ويكرر في أكثر
من موضع تلك الحقيقة الجوهرية ، التي تقر سلطان الله على الخلق ،
وتدعوهم للطمأنينة إلى عنايته ، والحرص على رضوانه . فجاء
في سورة الحديد :

«هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

وجاء في سورة الأعراف :

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » وجاء أيضاً « أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وجاء في سورة يونس :

« وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ »

وجاء في سورة يس :

« وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

— ٦٩ —

وجاء في سورة فاطر أنه سبحانه :

« عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

وجاء في سورة المؤمنون :

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ »

وجاء في سورة غافر :

« يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »

وهكذا بدت العقيدة الإلهية في الإسلام ناصعة الصفاء في تجردها من الشرك وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم كانت البشرية قد باتت في حاجة ماسة إليه بعد الذي انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبليلة .

وأما المسألة مسألة إيمان ، فمن آمن بعقيدة تنزه الله عن كل مشابهة بالخلق ، وعن كل تعدد تجسم أو استدق ، يكون أقرب إلى طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد ولكنه يحتمل على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة . ويحار في وجه حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم ، وقد كانت لمباداه غنية عن تلك

الخبرة بتمام التوحيد ، فيفلق الباب دون كل تساؤل وكل إبهام ...
أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر ، وإنما يتجلى للناس
منها ما يعينهم وما يكون على قدر إدراكهم .

وأول ما يجبه الناس أمر الحيا والممات ، فالله هو :

الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . (سورة الفرقان)
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . (سورة المؤمنون)
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . (سورة القصص)

وتتواكب آلاء الله على عباده . فهو الرازق الوهاب خالق
ما في الأرحام . العليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال ...

وقد كانت لبني إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله ،
تسكاد تنفي الطمأنينة وتبعث الهول . وما دين بغير طمأنينة يستقيم
يها أمر الناس في حقهم من الدنيا والآخرة ؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله « الرحمن الرحيم » ..
لا يكتفي من هاتين الصفتين بوحدة دون الأخرى .. ويقول
في (سورة فصلت) :

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطمئن الناس إلى العدل وإلى

— ٧١ —

الإعذار مع الإنذار ، فهو إذ يقول في سورة البروج :

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

يرد فيها بقوله :

« وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ » .

وجاء في سورة الإسراء :

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام
أجدادهم الغابرين، وأن حصرم الآباء يضرس به الهنون... فالقرآن
قاطع في نفي هذا الجور المستعصى على الفهم فيقول في (سورة فاطر)
« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

ويقول في البقرة :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ .
وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهو توضيح أو تصحيح كان لا محيص عنه ، وإلا وجد العقل
البشرى في سنن الله ثلمات تزججه وتصده عن الإيمان والتسليم .
وكانما بقيت بعد تلك الصفات وقفة قد يقفها عقل البشر الذين

— ٧٢ —

درجوا ألوف السنين على التجسيم وهو تصوير كل شيء في صورة الجسم الذي له موضع محدد وأين معين .

ويأتى القرآن بالجواب ، حاسماً قاطعاً لكل شك :
« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ . فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ » (البقرة) .
« لَا تَذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ . وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ » . (الأنعام) .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ : فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ » (البقرة) .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتِسُوْسٌ بِهِ نَفْسُهُ
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (سورة ق) .

ويحار البشر . فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل :
« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (الشورى) .

عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل
حيرة وخوف ، ويبعث الطمأنينة في كل نفس .

وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان ، لا يصعد عنها أحد
بسبب جنسه أو لونه :

— ٧٣ —

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ». (الأعراف)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (الحجرات) .

وهكذا يجد كل إنسان له مكاناً في ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة ، التي لا تفاضل معها إلا بالتقوى ، تقوى الله رب « العالمين » ...

الإنسان

أما الإنسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيراً ، بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم ، ذلك الوزر الذي اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثية ، لا بد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجزيرتها أبناء الجنس البشري كافة .

وإن أنس لا أنس ما ركبنى صغيراً من الفرع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى ، وما سبقت فيه من سياق مروع ، يقتزن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لمخيلة الأطفال . وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران ، جزاء وفاقاً على خطيئة آدم ، بإيعاز من حواء . . وأنه لولا النجاة على يد المسيح ، الذي فدى البشر بدمه الطهور ، لسكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين .

وإن أنس لا أنس القلق الذي ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح ، أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة ! ؟ .

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ،
وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالجرم ، أو تزر الولد
بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة .

ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ، وما
يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول في سورة طه .

«وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَهَدَىٰ» .

ويقول في سورة البقرة :

«فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» .

وآدم ، أبو البشرية ، كرمه الله نخلته على صورته ، وفضله
على الملائكة ، وقد جاء في سورة البقرة .

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا » .

ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشبر .

وليس كالملائكة التي لا قدرة لها إلا على الخير ، فله عليها
فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات .

أما بنو آدم ، فتقول سورة الإسراء .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .

ويخاطب الناس في سورة الحج بأن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ »

وفي سورة لقمان أن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ » .

إن المسؤولية هي أساس الكرامة الإنسانية ، وأساس كل
حرية ، وكل أخلاق ممكنة . وهذا ما قطع به الإسلام ، ووضع
به الحجر الأساسى لكرامة بنى آدم . فيقول في سورة النجم :
« وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ
سَوْفَ يُرَى » .

ويقول في أكثر من سورة ، على سبيل التأكيد « وَلَا تَزِرُ
وِازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى » . وهو القائل في سورة التين .
« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

هذه المسؤولية هي التي يسميها القرآن الأمانة : تلك الأمانة
التي جاء في سورة الأحزاب :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَيُّ بَيْنَ أَنْ بَحْمِنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَّاهَا الْإِنْسَانُ .
ثم نجد في سورة الإسراء :
« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . .

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء
الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القائمة ،
التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء ، فيمضي في
حياته مُضَيَّ المريب المتردد ، ولا يقبل عليها إقبال الواصل ،
بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث .

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينباع الحياة كلها . ورفعها
عن كاهل الإنسان منة عظمى ، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة
فيه . بل هو ولادة جديدة حقاً ، وَرَدُّ اعتبار لا شك فيه . إنه
تمزيق صحيفة السوابق ، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه .

والناس في كرامة البشرية أمة واحدة ، بغير تفريق ، فقد
جاء في سورة الأنبياء :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »

وجاء في سورة الحجرات :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

أجل ! لا عصبية ولا شموعية ولا فروق من حيث اللون
أو اللغة . وهذه سورة الروم تقول :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ ... وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
أَلْسِنَتِكُمْ وَالْأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ » .

وهكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عند
الله أتقاهم . ثم « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (سورة المجادلة) و « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (سورة الزمر) .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

وأن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق ، ويجهر
به ويحتمل في سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية .
وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق . أو كما جاء
في سورة العصر .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

وإن الغلبة للحق في نهاية المطاف على كل حال .

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » (سورة الأنبياء) .. « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » (سورة الإسراء) .

أجل ! وينبئني أن يقر الإنسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين ، كما ورد في سورة النساء .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » .

إن الحق مقدس ، ولو كان فيه نصرة عدوٍّ أو مغنم له ، فذلك هو لباب التقوى . فقد جاء في سورة المائدة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .. » .

ثم جاء في ختامها « هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وتشيد سورة الفرقان بالصادقين : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ
الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه لصبور على المسكاره إن
أودى في سبيل الحق :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة البقرة) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (سورة آل عمران) .

« وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ » (سورة إبراهيم) .

هى الشجاعة فى الحق ، والشهادة لله ، والصبر على الإيذاء
فى سبيل الحق ، إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقاً .

ولسكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن .

« لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ،
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . وَاسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ، الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » (سورة البقرة) .

وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ . وَاعْصُصْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (سورة لقمان) .
« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ » (سورة غافر)
« إِيَّاهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكَبِرِينَ » (سورة النمل) .

وأشهدكم جميعت نفسي وغنيت كلما رأيت عقلا من المستكبرين
الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان . ومادروا لغفلتهم أن
السلطة في ذاتها ليست شيئا ، وأن الولاية على الناس جذوة من
النار ، أما الشيء حقا ، فهو رعاية الله في حقوق الناس ،
واستخدام السلطان للخير والعدل في غيرة على الحق ، وجماسة
لنصرته ، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون . وأكاد أقذف
في وجه القدم من هؤلاء بما جاء في سورة الإسراء :

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ
الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ
رَبِّكَ مَكْرُوهًا » . .

ولا تتم صورة الإنسان الكريم الغيور على الحق ، الصادق
في القول ، الصابر في الهول . الخاشع للرحمن ، إلا بأن يكون صادق
الوعد ، موفيا بالعهد والعقد :

* «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» (سورة الإسراء).

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» (سورة المائدة).

«وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ اللَّهُ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ» .
(سورة النحل)

وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق . وقد أنحى عليه القرآن إنحاءً عنيقاً :

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى . يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ ، لَا إِلَى هُوَ وَلَا إِلَى هُوَ .» . «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» (سورة النساء).

« يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » (سورة آل عمران) .

فالإنسان الكريم حقاً لا ينافق ، ولا يخشى في الحق شيئاً ، ينصر الله ، والله ناصره . ذلك جوهر إيمانه . وإنه بذلك لعزیز المكان في الدنيا والآخرة ، لا يسمى في دنياه سمي الغريب الذليل :

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» .
(سورة القصص)

وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب لا يشكو « فصام » .
الروح والجسد ، ذلك الفصام ، الذي عانى منه الكثيرون .
ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده . . .

وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا ، لا ينظر إلى طبيعتها
نظرة الحسير ، ولا يعيش في جنباتها مشية الأسير ، ولا يتقل كاهله
الخزى من نوازه ، في يده زمام نفسه . وقد أحل له ما لم يرد
فيه تحريم ، تقرُّ به عينه في غير حرج ولا غضاضة .

السبوة

لاتأليه ولاشبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية . وهي مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم ، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد ، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب ، أو بنسب من الأنساب . فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشراً كسائر البشر ، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء .

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً في آيات القرآن ، فذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، ما جاء في سورة الكهف :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. » .

وفي تخير كلمة « مثلكم » معنى مقصود به التسوية المطلقة ، والحيولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال .

بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

وظاهر في هذه الآية تمتد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته ، وحدود رسالته التي كلف بها ، وليس له أن يعدّوها ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها .

بل كأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة ، فجاء في (سورة ق) :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

ومن هذا القبيل أو أبين منه وأصرح ما ورد في (سورة الفاشية) :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » .

رسول بشر . ما عليه إلا البلاغ بما يوحي إليه من ربه .
ولا زيادة ..

وتوكيد القيمة البشرية بمحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات
فحسب ، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها ، وتاريخ
الرسول كله .

إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى

لُدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ مِنْ غَيْرِ مَدَدٍ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْخَاطِفَةِ لِلْأَبْصَارِ
الْخَالِبَةِ لِلْأَبْأَبِ . فَقَدْ أُرِيدَ لِلنَّاسِ أَنْ يَشْعُرُوا أَنَّ رَسُولَهُمْ
« مِثْلُهُمْ » حَقًّا وَصِدْقًا كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ . لَا يَمْلِكُ مِنَ
الْخَوَارِقِ أَكْثَرُ مِمَّا يَمْلِكُونَ . وَلَيْسَ لَهُ مِنْ سُلْطَانٍ عَلَيْهِمْ . وَإِنَّمَا
الْأَمْسُ إِلَيْهِمْ ، كَيْ يَكُونَ اهْتِدَاؤُهُمْ نَابِعًا مِنْ قُدْرَاتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَنْ
افْتِنَائِهِمُ الذَّاتِيَّ ، بِغَيْرِ تَأْثِيرِ غَرِيبٍ عَنْ مَعْدِنِ الْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ . .
فَيَكُونُ اهْتِدَاؤُهُمْ إِيمَانًا لَيْسَتْ فِيهِ شَائِبَةٌ اسْتِهْوَاءٍ أَوْ تَوْرِيْطٍ .

وَمَا تَوَلَّى الْعَرَبُ عَنْ مَطَالِبَتِهِ بِإِخْرَاجِ مَا ظَنُّوه فِي جَمِيعَةِ كُلِّ
صَاحِبِ نَبْوَةٍ ، وَمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ إِلَّا الْمُلْهَاةَ :

« وَبَقُولُونِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ : إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ ، (سُورَةُ يُوسُفَ ١٠)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » (الْأَنْعَامُ) .
« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ
كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ . وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ .
إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (سُورَةُ الْأَعْرَافِ) .
ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء .
حقًا ! وما أكثر ما أودى ، وما أشد ما أساءوا إليه به ،
وهو لا يملك لذلك دفعًا ، إلا الصبر على البلاء :

حقاً ! بل وتخطف الموت فلذات أ كباده . . ليسكون ذلك
إيذاناً بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بنى آدم . فتسقط
دعوى الناس فى التقصير عن الاهتداء به . فلو كان يجرى عليه
غير الذى يجرى على البشر ، لكانت لبعضهم الحجة بأن
استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول ، فأين هم منه ؟ وكيف
يكلفون بما لا طاقة لهم به ؟ .

بل هو « مثلكم » لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ويمسه
السوء والنسك مرة بعد مرة . . ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة
لكل من نشد الاهتداء والافتداء .

وفى بقينى أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة
لا تستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى ، فهذا أشبه
بالاحتتيال على الطفل ليقبل على الطعام الذى يقيم أوده . وهو
حرى أن يطلبه ويلج فى طلبه لو أوتى الرشده .

كذلك العقل السوى يجد امتها نأله أن يحتال عليه صاحب
دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ، فإن كل دعوى
صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها . فالحقيقة آية نفسها
ولا مرأ فى ذلك .

لهذا كان لا بد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتبه الدعوة

إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف ، يحترم فطرته وبدايته ،
وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة
للطور الطبيعى للبشرية تاريخاً ، ونصوحاً ، ورشداً .

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحراً ولا
كاهناً ولا مجنوناً ممن بهم لوثات الصرع . . وينبه إلى المعجزة
الخارقة لا تفيد فى إقناع مكابر ، وفى ذلك ماجاء بسورة الحجر :
« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .
كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ
خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا
فِيهِ يَعْرَجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَسْحُورُونَ » .

ومن أنعم النظر فى هذه الآيات من سورة الإبراء يجد فيها
حكمة الإصرار على بشرية الرسول ، وأن آيته الوحيدة هى صدق
رسالاته . وذلك حسبها من سند ، وحسب الناس لو كانوا مهتدين
غير مكابرين . فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكاً من
الملائكة ، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة :
« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

— ٩٠ —

الْأَهَارَ خَلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا . قُلْ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا مافاله الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه « الإسلام والنصرانية » :

« فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري . فلا يدهشك بخارق المادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة . ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية .

» وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتمد برأيهم فيه ، على

— ٩١ —

أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسول ولا من الكتب المنزلة . فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولا .

رحم الله الأستاذ الإمام !

إن الحقيقة باقية والبشر زائلون .

الرسالة إذن هي الباقية ، وما هي بمتوقفة في شيء على بقاء هذا الرسول :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ . . »

إنها الحقيقة . ولكن كان لا بد من تقريرها لتوكيد بشرية هذا الرسول . . . وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتاح الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين ، من أن إماما مثل عمر بن الخطاب ، على رجاحة عقله ، وقوة إيمانه ، وهو من هو من الإسلام ورسوله ، أبي أن

يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت . .

ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس هذه الآية
لقطع عمر أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات .
« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ » .
كان من الجائر أيضاً أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته
وما أكثرهم ، وما كان ذلك لينفي شيئاً أو يشبهه . فإن الحق حق
لذاته ودعوة الإسلام صادقة لئلا نها ، عاش الرسول أو مات
أو قتل .

هذا إذن هو مكان النبوة في ذلك الطور الأخير . من أطوار
العقيدة الإلهية . . يتنزه الله في تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر
وأشباه جوبيتر . وليس أنبياءه كهاناً ولا ملائكة ولا سحرة
ولا منجمين . . وإنما هم بشر يأتيهم الوحي من الروح الأمين . .
وليس عليهم إلا البلاغ المبين .

ولسكن هل تكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب ؟
لا حاجة للبشرية بذلك التكرير . فإن طور الأسلوب العقلي
المجرد هو آخر أطوار البشرية . ومن تفتح عقله ، وبلغ رشده ،
فطأه في عنقه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره ، وقد تسلم
قياد نفسه .

— ٩٣ —

للمرسالة خصوصية هي إتمام ماسبق . ومتابعة البشر في أطوار نضجهم بما يفاسبهم من الهداية والصلاح . فما هي الخصوصية التي يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد رسالة الإسلام ؟ .

لقد تمت فكرة التوحيد . وتم خطاب العقل . وتم البلاغ إلى الناس كافة ، أحرهم وأسودهم ، وتمت كرامة الإنسان وصلته بربه ، وبدنياه . وتركت لهم مصالحهم المرسلة يعالجونها على ذلك الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور . فكل رسالة بعد ذلك قول معاد ، ليس فيه جديد يستفاد :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . » .

وبسبب من طبيعة الرسالة ، ومن الحاجة الطبيعية للناس إليها ، كان من الطبيعي أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل ، لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات .

حواوي

المرأة في الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية . فهي في ذلك صِنُوُّ الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه . . أمانة العقيدة والإيمان وتركية النفس ، فجاء في سورة الأحزاب :

«إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ : أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور . ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم ، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانا كثيرة كإتباع السلعة . يبيعها أبوها أو رأس عشيرتها أو زوجها . وكانت في كثير من الأحوال منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقته .

بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص . وإنما الأمر في ذلك
لوليها يجريه على هواه .

وأكثر من هذا ، كانت قبائل العرب في الجاهلية تشدد البنات
كراهة لمن وازدراء لشأنهن ، ومن لم يثدهن كان يضيق بهن
ضيقة شديداً .

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ : أُتْمِسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (سورة النحل) .

وفي هذه السورة عينا إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر
والأنثى بغير تفريق في التكليف أو الجزاء :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وفي سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل
في ثمرات الأعمال والجهود :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُ » .
وفي بعض الأمم القديمة ، وفي بعض الأمم الحديثة ، كانت
المرأة تحرم غالباً من الميراث ، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش ،
ونص على ذلك في سورة النساء :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا » .

وهذا النصيب المفروض : « للذكر مثل حظ الأنثيين » باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغاً ما بلغ تراؤها . أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء . فأعباءه المالية أبهظ من المرأة بكثير . وهذه القسمة إذن أقرب إلى مجاملة المرأة في شئون الأموال الموروثة .

ولا يخوض إنسان في موضوع المرأة في الإسلام من غير أن يخطر بباله قضية تحرير المرأة في هذا العصر ، ومساواتها بالرجال ويخطر على البال حتماً قول القرآن في سورة النساء :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

وما جاء في سورة البقرة :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى « درجة » دون درجة الرجل . وفي هذا ما فيه من بواغث النساؤل ، في زمن (٧ — محمد)

استفتحت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت في جميع الأمم الآخذة من الحضارة بنصيب .

وهنا لابد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل . وليس كل تفضيل جوراً . بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت ، فهو العبد الصراح .

وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقاً بغير قيد أو شرط لجنس معين من الجنسين ، بل إن التفضيل — عقلاً — لا يصح إلا بمحصول الفضل وتحققه . يرتفع بارتفاعه ، ويوضع بوضعه ، ويتحول بتحوله .

فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة ؟ . .

إنه حاميا . وإنه عائلا . وإنه تركز إليه وتلوذ به . وإنه أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا . وإنه أحظى منها بنصيب من المواهب أو القدرات .

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير بينة بل قيل :

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة : هو إرباء الفضل والإعالة ، أو النفقة المالية .

وشق الإعالة أو النفقة قد تجدد له المرأة حالا في نزولها إلى ميدان الأعمال ، وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجبى .

وأما إرباء الفضل ، فهو رهن بإصابة نصيب من التعمم ، أو البراعة في فن من الفنون ، أو راحة العقل ونباهة الذكر : وهي مقررات الفضل بنص القرآن . فقد جاء في سورة المجادلة .

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

ولا يفين عن البال ورود « درجات » بصيغة الجمع ، وقد وردت في سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد :
« وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

وجاء في سورة الزمر :

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ » .

وجاء في سورة النساء :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » .

— ١٠٠ —

إن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له ، فالعالم خير من الجاهل .
والجاهلة . والمالمة خير من الجاهلة والجاهل .
والمؤمن خير من الكافر والكافرة . والمؤمنة خير من
الكافرة والكافر .

والمجاهد في سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن
الجهاد والقاعدة . والمجاهدة في سبيل الله بأموالها ونفسها خير من
القاعدة عن الجهاد والقاعد .

لا تفضيل بغير فضل ، ولا تشريف بغير تكليف ، وإنما كان
العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات ، ومتى زال هذا
العائق ، وارتفع عنها القصور أو التضييق ، فهي حقيقة بشرات
فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام .

ولا أعتقد أن الجهاد في سبيل الله بالمسال والنفس يكون
بالحرب والفتح فحسب ، بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر
العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به نفوسهم
ويسرون به للخير ورضا ربهم في أمور دينهم ودنياهم .

فليس الإسلام — على حقيقته — عقيدة رجعية تفرق بين
الجنسين في القيمة . بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على
قدم المساواة . لا يفضلها إلا بفضل ، ولا يحبس عنها التفضيل

— ١٠٩ —

إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مهمل أو مرء .
وما من امرأة سوية تستغنى عن كنف الرجل بحكم فطرته
الجسدية والنفسية على كل حال .

وذلك حسب عقيدة لتكون سالحة لكل طور اجتماعي على
تعاقب الأطوار والمصور ، على سفة العدل التي لم يجد لها مصراً
اسماً أوفق من « تكافؤ الفرص » ، الذي يلغى كل تفريق ،
ويسقط كل حجة ، ويقضى على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح .

الزواج

الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات .

هذا هو لباب مايشور حول موضوع الزواج في دين الإسلام .
فلا بد من وقفة هاهنا لنتبين الحقيقة في هذا .

من المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى ، ولا عصر من العصور دون سائرهما ، ولا بيئة من البيئات بمعناها . وإنما يراد به التشريع للكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك ، مع مراعاة فطرته السوية . . ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التي لا يبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس .

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هي أساس الأسرة .
وهي تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعي ما وسعه التنظيم ، عسى أن يضع حدوداً لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم .

وما من شك في أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالي

من البديهي أيضاً ألا يطيقه إلا المثاليون . وخاصة ذوى العزم .
وما لهؤلاء فحسب جملة هداية الدين .

ونظرة إلى واقع الحياة البشرية في تاريخ مجتمعاتها الغابرة
والحاضرة ، نطلعنا على تمدد النساء في حياة الرجل الواحد ،
سواء جهراً أو سراً ، وسواء برخصة من القانون أو الدين ، أو
خفاف القانون والعقيدة .

وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة ،
فإن أثر الشمعوز بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامه
أثر خبيث يسم حلاوته ويمكر صفاءه الذى لا تقوم السعادة
الروحية والنفسية بغيره . . فضلاً عما فى العلاقات المختلطة من
إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه .

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر . ففي الريف
والبادية يمز القوت أحياناً ولا سيما على المرأة . وقد يكون فى عدد
النساء زيادة عن عدد الرجال . فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر
معيشتها مادياً ونفسياً إلا إذا صارت فى كنف رجل . وعندئذ
للحيلة فى التعدد ، لأنه الحل السليم الوحيد ، أو هو أسلم أساس
الجماعات هذه حقيقة ظروفها . والضرورات تبيح المحظورات .

هى رخصة إذن تستخدم بحقها ، وعند حصول مسوغاتها
الطبيعية من أحوال البيئة ، أو من أحوال الأفراد .

وما القول في زوجة أقعدتها المرض ؟ وما القول في الزوجة العقيم ؟ وما القول في الزوجة الفاترة ؟ وما القول في الزوجة السقيمة الأعصاب ؟ أطلقها أرحم بها ، أم إردافها بزوجة أخرى ؟ لاشك أن الأمر واضح .

هي رخصة إذن تستخدم بحقها . ولكنها ليست إلزاماً .. فهذه سورة النساء تقول بصريح النص :

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . »

بل وتقول أكثر من هذا :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » ..

وفي هذا إيحاء ، بل حض على الزوج بواحدة .

وليس من الإنصاف في شيء أن نقيس هذا الحض بمقياس زماننا وآدابنا . بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه . ففي تلك البيئة الصحراوية الجاهلية كان التمدد مطلقاً من كل قيد . ومن هذا نفهم سر قول القرآن : « مثنى وثلاث ورباع » ، بلهجة من يمدد للطامع ما هو مباح ، بأسلوب يوحي بالتوسع ، وهو يرى إلى التضيق كل التضيق . . وما أشبه هذا - في تصوري - بالأب الذي يقول لطفله الشره إلى الحلوى شرها لا يقف عند حد ، أو لا يؤذن بقناعة دون العشرة والمشرين :

— ١٠٦ —

— سنعطيك واحدة في الصباح، أو فل اثنتين . وثالثة في الظهر ورابعة في العصر . أرايت أنى لم أبجل عليك ؟
أما مازاد عن ذلك فليس إليه سبيل !
ثم تلا ذلك الإيجاء بالواحدة أن خاف الظلم عند التعمد ،
وليس عن الظلم عند التعمد محيص .

أما في غير تلك البيئة وشبهاتها من بيئات البشر الذين
توجه إليهم الدعوة ، فالمسألة أوضح ، ولن تضيرهم رخصة التعمد
وهم على التوحيد أو أقرب إليه طبعاً ونشأة ، ولهذا قال الله تعالى :
« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » في ميدان
الفضل والتسفف سعة . وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق
بعض درجات .

ولا يتم النظر في موضوع الزواج . ما تعدد منه وما توحّد ،
من غير النظر في كيفية الزواج ، أو نوع الصلة الزوجية .
إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى ، على إطلاق
بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسى النوع البشرى .
لغير هذا قامت كواجب الآداب وضوابط الشرائع والمقائد .
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

هكذا جاء في سورة الروم . . وإني لأرى في قوله « من أنفسكم » لسة تمس شغاف القلب . وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن ، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكيننة النفس لا من مساكنة الأجساد ! . بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة .

مشاطرة نفس ، وسكنها وسكينتها ، ومودة ورحمة . ما من شيء في هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية البحت . فإن الشهوة تأخذ وتنال ، وهي معتمصة بأنانيتها وانغماسها عن الطرف الآخر ، ولا تزيد بعد مأربها إلا شعوراً بالعزلة والوحدة الموحشة . وشتان هذه والمشاطرة ، وسكن النفس ، والمودة والرحمة .

كل أولئك من صفات الحنان . الحنان الذي يرحم ويؤثر ، ومن صفات المحبة التي تعطي قبل أن تأخذ ، وتنبيل قبل أن تنال ، وتقيم مطمئنة لتزداد بالمساكنة غنى وأمناً وأنساً . وتلك علياً منافع المعاشرة الإنسانية ، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء .

الزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان ، وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدى .

فما كان أخرى الناس - لو أن مطلب الجسد رائدهم
 ومبتغاهم - ألا يعرفوا حدود الزواج وقيوده ، التي تفرض
 الالتزامات على كل حال ، ثقلت تلك الالتزامات أو خفت ، وتربط
 بين الزوج وزوجه برباط هو قيد على كل حال ، وفي خارج الزواج
 لا قيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء اللبانات الشهوية .

ورب قائل يقول : أما والزواج مطلب نفسى وروحى عند
 الإنسان وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدى . .
 نفيم التعدد إذن ؟ وإن كان رخصة يهبها لمن شاء ويتنكبها متعمداً
 من شاء ؟ .. أما كان التوحيد هو سبيل ذلك السكن النفسى بمعنى
 الكلمة ؟ .

والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء . ولكن
 المبادئ قلما تعيش في دنيا البشر فتتيسر في أمور هي أمور ما تكون
 بالحياة اليومية والحقائق المادية .
 وأزيد الأمر وضوحاً :

أين هي الزوجة المثلى التي تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن
 إليها نفسه سكناً كاملاً حتى لا يفتقد في كنفها لونها من السكينة
 والطمأنينة كان يرجوه أو يشتهى إليه ؟ .
 قليل . أقل من القليل .

يقول سليمان الحكيم ، الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان ، وقد اجتمع فى وطابه من التجارب الزوجية ، والنسوية ما لم يجتمع للإنسان :

« الزوجة الفضلى أئمن من اللؤلؤ النفيس . من ذا يجدها ؟ ! »
إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء لن تهفو نفسه إلى سواها ، بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلا ولا يروم عنه حولا .

وأما من لم يجدها ، فى نفسه أشواق تظل ظمأى ، تتأفت صادية تنشد ربهما هنا وهناك .

هنا وهناك هذا واقع نلمسه كل يوم ، وكل ساعة ! فى رجال محصنين بالزواج ، تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم ، فى علاقات مختلفة ، تسف بهم وبشريكاتهم إلى درك الحيوان ، أو درك الخنزى والتأثم المهدر لشعور الكرامة التى هو خاصة الإنسان .

فراغ ينشد الامتلاء . فالطبيعة تفزع من الفراغ وتأبأه كما يقول الحكيم القديم : ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرين : أولها شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أرضت نوازع الأشواق الجسدية . وثانى الشرين تطليق

الزوجة القديمة لتفسيح للزوجة الجديدة مكاناً في نظام التوحيد .
 وقد تكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد . وقد تكون
 الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة
 من الجمال ، خالية اليد من مهنة ، خاوية الوفاض من مال
 فتتقوض حياتها . ولعلها كانت تؤثر البقاء في كنف زوجها على
 كل حال .

دلى أعرف من تجربتي الشخصية حالات كثيرة من هذا
 القبيل ، سأذكر منها حالة جارية لثاني دمنهور منذ عشرين سنة كان
 متزوجاً من سيدة قضى معها ربع قرن لم تتركها زوجة أخرى ،
 وكان لها ولد واحد تجاوز العشرين من عمره ، ثم مات فجأة . . .
 وخيم الحزن على البيت . . . وكان واضحاً أن الزوجة بلغت سن
 اليأس منذ زمن . . . وإذا بها تلج على زوجها أن تخطب له زوجة
 تنجب لها ولداً تقر به أعينهما في خريف العمر !

وخطبت الزوجة لزوجها . وأعرس في دارها . وكانت
 الزوجة الأولى من أبر الناس وأرفقهم بالزوجة الجديدة وكأنها
 ابنتها . وكان فرحها بالمولود المبكر فرحاً جارفاً فسكناً دب
 الخسرة في عودها الجاف ، وعود زوجها الشاكل . . . وأشهد أن
 هذا الطفل كان ألصق بصدر زوجة أبيه السهلة من صدر أمه

الشابة . وأشهد أنى أدركت من أحوال هذه الأسرة معنى
ما حفلت به كتب بنى إسرائيل من نذب الزوجة العاقر جارية لها
كى تحمل من زوجها وتلد لها نسلا !

وفى اعتقادى أن هذا الرأى المستمد من الواقع فى تحديد
ظروف التوحد والتعدد هو أقرب ما يكون للتعامل الطبيعى .

ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه
أحداً مدة حياة خديجة ، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريباً ،
هو طور الفحولة فى حياة الإنسان ، ما بين الخمسة والعشرين
والخمسين . ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها .

وليس هذا موضع الكلام فى ظروف زواجه بأولئك
الزوجات ، بل حسبنا الإشارة إلى أن خديجة كانت الزوجة المثلى
فى حياة الرسول ، ظل يشهد بذلك ويفار عليها إلى ختام أيامه ،
ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيراً منها
قط ! .

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكنت إليها ، ولما ذهب
تركت فراغاً هائلاً لم تستطع واحدة أن تملأه . وأكاد أحس أن
الكثيرات يحزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام .

وأياً كان التعدد بموجبات تلك الرخصة ، فهو مشروط على

كل حال بالودعة والرحمة ، فلا تحل فيه المنايظة والإضرار
الأناني اللثيم ...

وبحسبي أن أشير هنا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحریم
زواج الرجال بثانية ما دامت الأولى في عصمته لما في ذلك من
المضارة للزوجة وهي سيئة لا يستحسنها العقل .

وهذا في اعتقادی من باب السمو الذي يحض القرآن عليه
إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذي لا مناص منه
في حال التعدد . ولكن الرخصة واضحة ، والحكمة منها قاطعة
بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الخلطة المثل وهي التوحد .

رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها . والمرتب فوق ذلك
مفتوح لمن استطاع وهو محمود . وما نحن نرى ظروف الناس
تتقدم بهم يوما بعد يوم نحو سياسة التوحد في الزواج ، مع
ارتقاء العلم ، وانفساح الفرج للزواج عن بينة ودرس وتمحيص .



ولا بد في هذا المقام من التعرض لناموس الزواج أصلا ،
بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا ، خلاسته ، أن العفة
أو الرهبانية هي الأصل ، ومن لم يستطع ذلك فليتزوج . فكان
الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك .

ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفسكرة الخطيئة الأولى ،
واعتبار أن العلاقة الجنسية شر في ذاتها ولذاتها . وأن الجسد كله
عورة بكل رغائبه وطلبه للطيبات من الدنيا ، فهذا الترهيب ، مع
النسك ، والعصيام المسيحي المزوف عن أطايب الإدام ، أدلة على
الصيق بالبدن ، وازدراؤه ، وصحبته على مضاضة ، والنظر إلى
مطالبه وإلى زينة الدنيا جملة ، نفرة عداة وحصومة .

البدن شر لا بد منه . وكذلك الزواج . والخير كل الخير في
محاربتهم وعدم الانسياق لهما والإخلاد إليهما .

حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار . وإنما هو الصراع المستمر .
والقلق المستمر ، الذي تفسد به الدنيا . وتعي به النفس . وقد
كشف لنا علم النفس الحديث عن الملل والآفات المحزنة
التي تسم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتألم من الجسم
وغرائزه النوعية .

وما حال إنسان يمارس الحياة حزينا مستخزيا من كل نبضة
سرورها وكل حاجة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية إليها !
إن الإسلام لا يقاوم الحياة ، بل يقر الفطرة البشرية على
تقديسها ، وصيانة ينابيعها من الأكدار . ولا يفصل بين حياة
الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما في واقع الجبلية التي
جبلها خالقها الحكيم الخبير .

إن القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية في إبداع
الجنسين ، وكيف أن هذه سنة الله في خلقه كافة في جميع
مراتب الحياة . والرسول يؤكد أن الزواج نصف الدين .

وأى تعبير أقرب إلى فطرة الحياة ، ويرفع عن تلك الصلة
كل شبهة في خزي أو هبوط معيب ، مما ورد في سورة البقرة ،
بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » .

أو مما ورد في سورة النساء في باب تعظيم ما يكون بالزواج
من ميثاق وعقد وعهد له حرمة رعى :

« . . . وَفَدَّ أَفْضَى بَعْضَكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ
مِيثَاقًا غَاطًى . . »

بل إن الكراهة أمر لا يسوغ البدار إلى فصم العروة الوثقى .
كما جاء في سورة النساء أيضاً :

« . . . وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . . » .

إن الأساس في ذلك العقد أنه لا ضرر ولا إضرار « فَأِمْسَاكَ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِبْ بِإِحْسَانٍ » . كما جاء في سورة البقرة . وإن
ذلك لمسبار الخلق الكريم الذي يترفع في سمت الفروسية عن

الافتئات الذميم والجور اللئيم . حتى إن الرسول قال فى خطبة الوداع :

« واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله » :

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها فى كنفه . فهى تحت رحمته ، ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد بأمرها . أنها أمانة الله فى يده وعنقه . وليس بعد أمانة الله مخرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد ! .

استجابة للحياة فى طلاقة وبراءة من التآثم . وتقديس لدوافعها وورود طلق لبنائيهما ، مع الحفاظ عليهما من أكدار البهيمية المسفة . بذلك يسمد المرء من بنى الإنسان ، وتترقق فى نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة ، ولا يجد حرجاً بين ربه ونفسه . وربّه قد خاقه على تلك الفطرة ، ولو شاء لجعله ملكاً لا بدن له ولا شهوة .

كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التى بين جنبيه بمقيدة موقفة بين الدين والدنيا وقد نهض بهذا الإسلام ، وكانت سنده فى الزواج كفاء خطته فى جوانب الهداية البشرية

الفطرية ، لتحرير البشر من الذعر والخزى وعقدة الإثم
الشوهاء التي كبلته ، ولم تزل تسكب السكثرين عن انطلاقة الحياة
وسوء الفطرة .

« فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُهُ بِإِحْسَانٍ » .

أجل !

لا يمكن أن تتم لنا فكرة متكاملة عن الزواج ، من غير
التعرض لموضوع الطلاق .

والحق أنه يمسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من
الصور . فالزواج نظام جعل لإسماد الناس وصلاح أمور حياتهم .
ولم يجعل الناس ليسكونوا عبيداً أو ضحايا للزواج ، فالزواج
الذي تستقيم به حياة الإنسان هو الذي يستحق الإبقاء عليه .
أما الزواج الذي به تفسد حياة الإنسان ويتطرق إليها العطب
والعفن وصديد الحقد والسخط . فهذا ينبغي أن يبتز قبل أن
يقضى على فرصة الحياة الغذة المقدسة ، كما يبتز العضو الفاسد من
الجسم حرصاً على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور
عزيزاً .

« لا ضرر ولا ضرار »

قاعدة ليس أحكم منها في جميع شئون البشر ومعاملاتهم .
وهذه هي القاعدة الإسلامية العامة .

إن فرصة الإنسان في الحياة واحدة ، فقيم نجملها عذاباً مقبلاً
بشؤونهم تبين أن الوفاق بينهما مستحيل ، وأن حياتهما معاً
إهدار لحياتيهما لا محالة .

إن التطبيق العملي أثبت ذلك ، وصارت أمم الغرب المسيحية
تجيز الطلاق في قانونها بواسطة المحاكم . وذهب بعضها إلى التوسع
في أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية .

ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان ، إن كان يدرك ويحس
أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فكاك له منها بأي حال من
الأحوال ؟ إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية ،
وفي يقيني أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير
سهما حجري الأساس في كل إحساس بالكرامة البشرية . وبغير
تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطالت .

إن السعادة الحقيقية هي التي يشعر معها الشخص أن الباب
أمامه مفتوح ، وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ،
ما اختار إلا ما هو فيه .

إن رخصة الطلاق دواء من المذاق . أو جراحة موجعة .

ولكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة ، أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب ؟ . . .

لابد من الدواء ومن الجراحة ، ما دمتنا نعيش فى عالم كوز وفساد ، وصواب وخطأ ، وصحة ومرض ، وحكمة وحماقة . - بحيث لا عصمة للبشر . لابد من وسيلة لتدارك الأخطاء ، وإعطاء الفرصة لبني آدم وبنات حواء كي يبدؤوا من جديد بناء سماتهم فى الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح ، يعمرها الأمن والمودة والرحمة .

والإسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الدواء السكرية المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة، ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة فى إصلاح ذات البين . فقد جاء فى سورة النساء :
 « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا »
 فإذا عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين ، فقد آن إذن أن يكون « تسريح بإحسان » لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها ، والقاعدة المثلى فى الإسلام أنه « لا ضرر ولا ضرار » ولذا جاء فى سورة البقرة :

«وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَمْتَدُّوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُ» .

وليس المرأة في جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمساكاً وتسريحاً ، إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت ذلك عند عقد الزواج ، فيكون زمام الحياة الزوجية في عنقها إن شاءت أبقت ، وإن شاءت فصمت .

وهذا هو الحد الذي يقول العقل إنه لا يجوز على حقوق السعادة الفردية ، ولا يجعل الزواج أحياناً « عاهة مستديمة » بغير مبرر عقلي ، وبغير مصلحة لساكنين من كان .

وقد يحتاج محتج بمصلحة الأولاد . وتلك رتب الإسلام فيها أحكام النفقة ، وأحكام الحضانة . ثم ما من أحد يقول إن تربية الأطفال في كنف أبوين متفاهمين متحابين أمر يستوى وتربيتهم في كنف أحدهما دون الآخر . ولكن المسألة هي أنه إذا امتنع التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا يُلشأ الأولاد في ذلك الجوارح الحاقدة للدود ، فذلك أهون الشرين لهم . وهو كذلك أهون الشرين للأبوين . وهي على أي حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله عنها مندوحة .

وقد لمن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها

الإنسانى والشرعى ، قضاء لمآرب وضيعة . فناء فى الحنينة .
الشرىف :

« لعن الله كل ذواق مطلق » و « لعن الله الذواقين
والذواقات » و « لعن الله كل مزواج مطلق » .

ولحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل . حتى
يكون هناك موضع للمراجعة قبل أن تقع الواقعة . فإن ساطق
الغضب غشوم . أما السكران والمخرج والمكره فلا يقع
منه طلاق .

وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق
لأسباب محددة ، مثل الزنا ، فقول فيه وجه غضاضة . لأن
التحاكم فى دور القضاء فيه ابتدال للأعراض حتى تغدو مضمة
فى الأفواه وعرضة للإجاجة والملاحاة .

إن صون الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق ، وفيه من
النخوة والبصيرة الشئ الكثير ، حتى لا توصم المرأة بما يعيبها
ويعوق زواجها مرة أخرى . وحتى لا يوصم بناتها أو أبناءها بما
تردد فى قاعات المحاكم من مثاليها ، وما قد يصدر حكم القاضى
تأسيساً عليه .

ثم كيف لنا بتحديد الأسباب التي تجيز الطلاق بناء على
حطّ الرجل ؟

إن الزواج صلة حميمة . وقد لا يرى الغريب في المرأة عيبا .
ولسكن يجد الزوج فيها عيبا كبيرا . وليس من الضروري أن
يكون ذلك العيب جسيماً أو محسوساً . فهناك اختلاف الطباع ،
مع كمال الأدب في الزوجين ، بحيث يمتنع بينهما الامتزاج
والتعافى . أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء ، وإلى الزيت
قد يكون من أجود الزيت ، ثم لا يمكن بينهما امتزاج لاختلاف
المعدنين ؟ .

كذلك الناس معادن شتى ، قد يطيب كل معدن منها على
حدة وليس ضربة لازب أن يمتزج أى معدنين منها على الوجه الذي
تستقيم به حياة الزواج . وعندئذ يكون الافتراق خيراً وأولى ،
لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا
حياة سعيدة .

فلا عيب في الدواء إذن ، ولا يطعن في صلاحه أن تطيش
به يد أو يشتط لسان . فلا يطعن على الماء أنه قد بشرق به
لثمارب أو يفرق فيه المغتسل . ولا يطعن في النار أنها قد تكون

— ١٢٢ —

حريقاً لا يبقى ولا يذر . فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن البصر ومراعاة الحذر .

ولا بد من كلمة أخيرة ، عن جواز زواج المسلم بالكتابية — يهودية كانت أو نصرانية — في حين يتمتع العكس ، أى زواج الكتابي — يهودياً أو نصرانياً — بمسألة .

فاذا تذكرنا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما ، عرفنا أنه لاغضاضة على الزوجة الكتابية في الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم . ولكن اليهود والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام ، فتكون المسلمة غير آمنة على دينها في كنف الكتابي . وليست المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز في كثير أو قليل .

لاقيصر

« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! »

عالم مقسوم : شطره لله وشرطه لقيصر .

عالم مقسوم : شطره للقلب والروح ، وشرطه للحس والبدن .

عالم مقسوم : شطره للدين وشرطه للدنيا .

عالم مقسوم : وعلى المرء أن يختار شطراً منه ويتخلى عن

شطر . ويجعل بينه وبين الشطر المتروك سداً : سداً من عدا ،

أو سداً من إذعان سلبى هو كالعدا سواء بسواء .

تلك دعوة السيد الناصرى ، وقد عدل بها عن سنن اليهود في

تعلقهم بالملك ، وحرصهم على الدنيا ، فجعل الدين للقلب ، وجعل

العزة للروح . ونادى بتحقيق الدنيا ونبذها ، بما فيها من مال ،

وحس ، وبدن ، وملك ، وسلطان .

أقيصر بيده مقاليد الدنيا ؟ قل إذن ما الدنيا ، فإنك بعدها

لخليق أن تقول وماقيصر ؟¹ فلينذهب قيصر بالدنيا على رجبها ،

فأعظم ما فيها عندئذ هين ، وأجل ما يكون من أمرها حقير .

ماسامت لك نفسك التي بين جنبيك من شوائب الدنيا ، وزعزعت
السلطان وفتنته . فإنك في حزب الله أجل من قيصر شائناً ، لأنك
أحظى منه سكينه نفس وأمناً ، وأهدى منه سبيلاً .

ذاك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم ، بل ونفضوا
ترابها من نعالمهم ، وسلكوا إلى ربهم مسيراً إلا على من
يسرهم المولى له ، وهم قلة نادرة بين العالمين .. أما سواد البشر وهم
. ملايين ومئات الملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التي
تضج في دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من الغريات والقيمات
المقدمات . ولا هم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا
بقلب سليم وعزم مقيم . وإنما هو الفصام . وإنما هو التعلق بين
السماء والأرض ، عاجزين عن اليقين ، حيارى ما لهم من قرار .

أعز مكان في هذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة
مفردة في مفازة بيضاء ، لا يطرقها طارق ، ولا ينمق فيها ناعم ،
يخلو فيها العابد لوجه الله . فما الدنيا للإنسان بدار . وإنما هو قد
نعاها وجفاها ، وما لبثه فيه إلا ريثما يقبضه ملك الموت فيتم عليه
ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة .

وما كل امرئ بقادر على أن يكون راهباً في دير أو ناسكاً
في صومعة . ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة وباد

منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون .
وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطئة ضعفاً منهم أو عجزاً ،
بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التي فطرهم عليها حين ركب في
نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين . فلو كان مراده
سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم
ومقاصدهم ، ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها ، وخلق
حبها في قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو اكتساب ؟

وتغلبت فطرة الخلق ، وثابر الناس على الانصراف إلى الحياة ،
لا الانصراف عنها ، فكان إذن لابد من موقف من قيصر ، وفي
يده مقاليد الدنيا .

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب
الحكم وليس في الانصياع السلبي والتسليم للحكومة أى معنى
من معانى الاهتمام . فالاهتمام هم ومشاركة وعمل .

وبأى سند من المبدأ أو النقل أو العقيدة تنصدي لذلك
الاهتمام بالحكم وأسلوبه ، وقد قسمت الأمر بين ماهو لله
وماهو لقيصر ، فجعلت من قيصر في الدنيا نداً لله في عالم الغيب
والسريرة .

لابد هنا من وقفة حاسمة^١ وضربة قاصمة ؛ حتى يصير الأمر
كله لله ، بين دنيا الإنسان وأخراه .

— ١٣٦ —

ولهذا أيضا تصدى القرآن ، وانبرى الإسلام ، فبحا تلك
القسمة محوًا ، ووحد مملكة الحق سفلا وعلا . فجاء في سورة
الأعراف :

قُلْ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

فمن يكون هنا فيصر ؟ بل أين هو ؟

لاقيصر بعد اليوم !

« بَلِّ اللَّهُ الْأُمُورَ جَمِيعًا » .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » .

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

الله أكبر ولا فيصر بعد اليوم !

وليس قيصر الروم وحده هو الذي نعنيه حين نقول قيصر ،

بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف ، ويستمد من غير الحق
والعدل والأصول الإلهية ساططه على الناس .

لاقيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله » له

الخلق والأمر » « وَأَوْرُثُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . كما جاء في
سورة الشورى .

بل إن الرسول ؛ وهو الحاكم الأول زمانا ومقاما وقُدوة ، كان

-- ١٢٧ --

عليه أن يشاور المؤمنين في الأمر . وكذلك كان يفعل ، فقد ورد
في آل عمران :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

أتعطى ماله لله وما لقيصر لقيصر ؟

ومن ذا يملك من الأمر شيئاً غير الله . . فهذا هو رسوله
والحاكم الأمر باسمه يجابه في آل عمران بأنه :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ » ويقال له في سورة ق :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

لاجبار على المؤمنين . و « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » كما جاء في

سورة الحجرات .

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة . وأى أمة ؟ ١٩ .

« وَكَتَبْنَا مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » كما جاء في (آل عمران) .

هي أمة إذن وليست ملكاً موروثاً ، المؤمنون فيها أخوة
وليس عليهم جبار . وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه
فيهم لأحد يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس أو لجماعة
منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس :

— ١٢٨ —

« فَاتَّبَعْتُمُ اللَّهَ أَنِّي يُؤْتِيَكُمُ الْغَنَاءَ . اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » (سورة التوبة) .

لا كهان ولا أحبار . وإنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ
به عباده من سنة ارتضاها لهم .

وهكذا تنسق السرائر والمظاهر ، وتكون حكومة الناس
صورة من عقيدتهم . يحكم الحاكم بما أمر الله . وليس له أن
يكون على الناس جباراً ، وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم . بل
إنه لا يكون حاكماً إلا بإجماع منهم ، وعندئذ تجب عليهم الطاعة
له ما عدل واتفق ، وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمعروف والنهي
والطاعة .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ » كما جاء في سورة المائدة .

ففي حدود البر والتقوى والعدل : « اسمعوا وأطيعوا وإن
استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » كما جاء في الحديث
الشريف .

للحاكم على الناس الطاعة ، ولهم عليه أن يمدل ، ويتقى الله ،
ويشاورهم في الأمر ، وأن يخفف لهم جناحه . فما هو إلا مؤتم

برسوله وقد قيل له في سورة الشعراء : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . .

أما إن ضلّ وغوى ، وأعجبته نفسه ، وفقته سلطانه ، فقد غدر بالبيعة التي له في أعناق الناس إذ جار عليهم . وما كان لهم أن يعينوه على الأمر . حتى لا يكون تعاون ، على الإثم والعدوان . وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » كما جاء في سورة المائدة . ولذا كان « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كما قال صاحب الرسالة في حديثه الشريف .

الأسر لله جميعاً .. والمؤمنون أمة الله ، في أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله . فمن فرط في شيء من ذلك كان مجترحا لأمر عظيم . أليس الرسول هو القائل في كلماته الجوامع ، وحكمه النواصع : « كما تكونوا يولّ عليكم » ؟ !

بلى ! ! ! فإن يقوم جائر في قوم طبعوا على العدل . والحق . وكرامة العدل والغيرة على الحق !

بلى ! ! ! وإن يقوم عادل في قوم بهتان وذل . فإنه خليف أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ، ومن انقيادهم الصيّد والاستبداد . « كما تكونوا يولّ عليكم »

صدق رسول الإسلام . وما غادره صدق الإلهام ، وهو القائل :
« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ . وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

أجل يا رسول الخير والصدق والحق ! فالناس بخير ،
وحكومتهم بخير ، ما ببق للحق في قلوبهم مكان ، وللغيرة على
العدل في قلوبهم الكلمة والسلطان ؛ وما يؤس المنكر أن يجد
في قلوبهم الإغضاء والتواطؤ . وما أبوا أن يجملوا ممن يحكمون
بالجور شركاء لله بالاستسكانة والإذعان .

صدقت يا رسول الصدق ؛ وصدق بمدد الإيماء « محمد
عنده » حين قال : إن المعول كله على « يقظة الأمة » : وأنه إذا
فقدت الأمة شجاعة إيمانها فلا خير لها في شيء من مظاهر المنفعة
والحرية والاستقلال

أشورى بلسان ولا قلب ؟ واجتماع ولا صدق ؟
ذلك هو النفاق الكبير .

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » . . . « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ؟ (سورة الزمر) .

وما هو بسؤال وإعما هو إنكار أو استنكار . إذن « فاسألوا
أهل الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (سورة النحل) .

اسألوا أهل الذكر ، من يذكرون الله ويصدقون ويتقون
 لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويترلقون ، ومن يبتغون
 المال والجاء ، « كفى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »
 (سورة الحشر)

والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان ، والحكومة
 بخير ما وجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم ، ذلك
 « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »
 (سورة الرعد)

أجل ! « كما تكونوا يول عليكم » ذلك الحديث الشريف !
 « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (الكهف) .
 « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى
 يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (الأنفال) .

أيها الناس . أمركم إليكم . وحكومتكم منكم وبكم وإليكم .
 وكلكم الله إلى إيمانكم . وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم
 الضير .

لا يقصر بعد اليوم . بل لله الأمر جميعا . والله قد فوضكم
 في أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا . وإنما

هو إيمانكم وعقلكم وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم
 « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » (سورة المائدة) .
 وكأئن من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا
 لسلطان جائر أو طمعا في قربى لديه ، فقد أشرك بالله وباع دينه
 واتبع قيصرا . وكفر بأن « الأمر كله لله » . « الذي له ملك
 السموات والأرض » .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

فيمثل هذا يكون الملوكوت في الأرض ، ويمثل هذا تكون
 عمارة الأرض . ويمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم
 أمام الطاغوت مستضعفين في الأرض . ولا يكون من تجبر
 وخرج على الله أقوى فيها ممن قال ربى الله .

إن من « قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ » حقاً ليسوا كمن قالوا « كُنَّا
 مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ » .

تلك عقيدة تمت دنيا ودينا . لأن الدنيا فيها مسبار الدين .
 والإنسان فيها مسدد اليقين . لا يعبد إلا رباً واحداً . حكامه في
 الأرض خدامه وصالحوه . هو على نفسه ودينه وكيل مسئول
 وليس عليه فيها جبار .

— ١٣٣ —

« وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمُ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَسِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » ،
(سورة القصص) .

تلك هي حياة القوة : قوة اليقين بالله لا قوة الحيوان أو
قوة المدوان .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . (سورة ق) .

مع الناس

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (سورة الحجرات) .

هذا مسلم به . ولكن ما القول في غير المسلمين ؟

« إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (سورة البقرة)

وما هي علاقة الأمم والشعوب فيما بين بعضها وبعض ؟ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ .
إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ خَبِيرٌ » (سورة الحجرات) .

لتعارفوا . . هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب .

إنما هي المعرفة والعرف والمعرف . والأكرم بينهم أكثرهم تقوى . ومن اتقى الله ما ظلم وما بنى . وما افتات وما اعتدى .

تلك هي شريعة الإخاء . وهي شريعة الحرية ، التي لا تعرف

قيصر ، ولا تعرف عقدة إثم ، ولا تمنو حياة الخلق فيها لغير الله .

أفهي شريعة مساواة ؟ .

إنها لشريعة مساواة . وما هي شريعة تسوية ! هي شريعة
عدل . والعدل أن يؤتى كل ذي حق حقه ، وأن يكون التقدير
فرعا عن القدر .. كذلك تتفاضل الأعمار ، والأشجار .. أفلا
تتفاوت بين الناس الأقدار ؟ .

« وَلَآذَ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (سورة الإسراء) .
أجل !

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (الزمر)
حاشا وكلا ! لا يستوون . وإن كابر الجاهلون ، أو ظلم
الظالمون ، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون ! بل :

« يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ » (المجادلة) .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . (الحجرات) .
« وَإِكُلُّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ هَمَّا
يَعْمَلُونَ » . (الأنعام) .
« وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيهَا
أَنَافِكُمْ » (الأنعام) .

كل إذن ينال على قدر عمله . ولكن بغير بنى ، ذلك أنه يريد

« لِيَبْلُوَكُمْ فِيْمَا آتَاكُمْ » . . . وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للثراء أو إثارة للأموال الخاصة على المصلحة العامة .

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (التوبة) .

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح ، وما هو دفع بلاء داخلي أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة ... فذلك هو سبيل الله حقاً ، لأن الله غني عن العباد ، وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف عنهم ويسر لهم أمور معاشهم ، فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » يتداولونه فيما بينهم استئثاراً واحتكاراً ، وتلك قلة المسف بالناس وإذلالهم وإعناتهم في أرزاقهم .

كل في هذه الشريعة ينال على قدر عمله وفضله .

« وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »
(سورة التوبة)

سيري المؤمنون أعمالكم . وسيعاسبونكم عليه ويقدرونه لكم ، كما سيقدره الله .

هم العمل إذن ، ولكن لا الماش والمنفعة الذاتية فحسب ،

بل ابتغاء مرضاة الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة . وعلى قدر هذا يكون التقدير .

وهذا أمير المؤمنين ابن الخطاب يذهب في تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعده مزيد :
« والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة » .

ومن قال هذا فقد أراد أن الإسلام الصحيح أو الإيمان الصحيح هو العمل النافع للناس .

« فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » (سورة الرعد) .

صدق الله العظيم ! .. « ما ينفع الناس » ذلك هو العمل وذلك هو الفضل . وذلك هو الفوز العظيم . وليس اكتناز المال ، واقتناء الصروح والضياع ، والاستكثار من الزخرف والمتاع .

وليس البر في البطالة والسيجود . أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد ، كلا .

« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ،
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ (سورة البقرة) .

وعند قوله «عَلَى حُبِّهِ» وقفة لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ
الله أعلم بحب الناس للمال وهو القائل : «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» .. ولكن الإنسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب
على هوى نفسه ، ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم ، فإن صلة
الخلق قربي إلى خالقهم ، فإنه بذلك « يقرض الله قرضا حسنا »
اعمل ويسر للناس أن يعملوا ، ولا تحبس المال عن التداول
بين أيديهم كافة وابدل مالك على حبك له للأقرباء واليتامى
والمساكين والسائلين . ثم عليك بعد ذلك الزكاة « فريضة من الله » .
فريضة لا يراد بها الكسالى . بل من أفعدتهم عن العمل
العوائق ، على طلبهم له ودأبهم في ذلك . فالكسب من العمل
هو الأساس . ثم من لم يجد عملا فعلى الجماعة واجب إعالته من
مال الزكاة .

دين عمل ، لا دين بطالة واستجداء .

ونعود كرة أخرى إلى قوله « على حبه » فإنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية في دين الإسلام . وإنا لنجدها حينما ذكرت الصدقة، سواء بالمال أو بالطعام، فجاء في سورة (الإنسان) « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » . وفي (البقرة) : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » . ففي ذلك مغزى الخلق الإسلامى وخاصته الممبزة . فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع فحسب وليست من الأعمال التي يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورقى المعيشة في الأمة وصالح الأحوال بتوجب عقلى . بل هو عمل خاتى في المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية : وجه الواجب .

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى في هذا المقام ، هو الفرق بين ما هو بوحى من المقيده وما هو بوحى من المسلحة ، نناق مداه أو التسخ .

فإننا نرى اليوم أعمأ بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعى المادى غاية مداه ، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة . ولكنهم لا يحسون سمادة نفسية بذلك الرخاء .

لماذا ؟

وهنا ترسم علامة استفهام ضخمة ، لأن هذا هو الفيصل،

بين الروح والمادة ، بين العقيدة والعقل ، بين العاطفة والمصلحة .
بل بين الله والإنسان !

إن التنظيم الاجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال
المجموع بعامه ، تحسينا ينعكس على كل فرد فى ذلك المجموع .
ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو
اليسر أو الرخاء ، يصيب ماذا ؟ أو يصيب من ؟

إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى ، وليس تحسيناً
لذات الآدمى . وتقدم لأحوال الإنسان ، وليس تقدماً بصيب ذات
الإنسان ووجدانه . إنه رقى فى السكينة ، وليس رقىاً فى كيفية
الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة .

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليمجزه
أن يبعد لذلك طعماً وجدانياً عميقاً ، أو رقىاً فى قيمته ونهوضاً
بمعنى إنسانيته ، إنه كالبلبل المزركش ولا زيادة

أما الإنسان الذى يحس ارتباطاً بين قيمته وبين قيم الكون
الكبرى . وبين أفعاله ومقاييس الأبد . وبين وجدانه وحقيقته
الوجود . فالرضوان الذى يشعر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته
الإيمانية رضوان إنسانى لحيوانى . روحى لاحسى . . بحيث
يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيداً من الارتقاء فى

الرضوان ، والسعادة ، يمتد إلى ما وراء القبر .

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادى .
بين يقين الروح وضياع المادة . بين حس الأخلاق وحساب
المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رعاؤها
وهذه هى أخلاق الإسلام :

بذل للمال والطعام على حبهما ، ابتغاء لما فى الإيثار من شعور
بالنجدة ، وقيامًا بالواجب الإنسانى والفرض الإلهى ، وطموحاً
إلى نعيم لا يزول بعدئذ لمن عمل صالحاً .

أخلاق أساسها الشعور بالواجب ، والقربى إلى الله فى
كُل صفاته وآلائه الحسنى ، « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » .

وأى مثل أعلى يلتسمسه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى ؟
إنه الرحمن ، الرحيم ، العليم ، الخبير ، اللطيف ، البصير ، السميع ،
المجيب ، الودود . . إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حقاً
لهم لا إعجازاً ! « لَا يُسْكَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » . « فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » .

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافز
الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته
الأرضية ورغائبه الحسية وأنانته الحيوانية .

« وابتناء وجه الله » .

هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق ، وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقل ، ومن ينظمها لهدف مادي .. فالإسلام لا يلغى العقل ولا يبيح المادية . ولكنه يضعهما في حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق . فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان فتيلًا . فيكون كمن ختم على سمعه وبصره .

« فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » . (الحج)

إن التقدم المادي بغير السمو الروحي عمى مطبق . و يعود عن التحليق وارتباط وخيم بتراب الأرض ، ولو جعلته تبرا أبرزا وبعد هذا السمو الروحي ، فصالح الناس المرسله أهل للرعاية ، وهم أعلم بشئون دنياهم .

وليس التنظيم الإسلامى لأموال الدنيا بنظام مقفل جامد . بل هو التنظيم الجوهري الذي لبابه قول صاحب الرسالة الكريم :
« لا ضرر ولا ضرار » .

« وأتم أعلم بأمور دنياكم » .

فالم يرد فيه نص بتحريم اسبب من أسباب العقيدة الروحية

— ١٤٤ —

فلا بأس على الناس فيه ، ما لم يكن فيه ضرر لصاحبه أو
إضرار بسواه .

خلق كريم وإيثار ونجدة ابتغاء وجه الله . واتقاء لغضبه في
معاملة الناس ، وإصلاح لحال الدين من غير إضرار بالناس ، وحرص
على مصالح الجماعة . وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق
بالعمل . وكفالة المتعطل والمجاز عن الكسب بالزكاة . وترفع
عن الترف والإسراف في البذخ حتى لا تستنيم الروح لشهوات
الجسد ، فذلك هو النموذج الكامل للإنسان . يجب إخوته في الله
ويوفق بين دنياه وأخراه . . . ويقهر شره الحس في معصاته
لا في صومعة بقالة .

إِنَّ ذَلِكَ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

مع الله

مع الله في الأرض . وابتناء لوجهه فيما تأخذ من الدنيا
وما تدع وفيما يمرض لك من المنافع والطيبات . وفيما يتصل بينك
وبين الناس من الأسباب .

تلك دعوة الإسلام .

« وَلَا تَنْسَ لَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

أجل !

ولا تجمعن الدنيا تلبيك عن ذكر الله . اذكره في كل حين .
ولكن عليك فرض من ذكره مفروض ، في أوقات معلومة من
الليل والنهار ، حتى لا تسهو عن ذكره . . . وباب النوافل مفتوح
بعد ذلك لمن شاء مزيداً من الإحسان .

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنْ قُرِئَ الْفَجْرُ كَانَ مَشْهُوداً . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » .
(سورة الإسراء) .

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » .
(سورة الروم) .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، لَعَلَّكَ تَرْضَى »
(سورة طه) .

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ . إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » (سورة المنكبوت) .

هذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن ينسى ذكر ربه طويلا ،
حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى ، فيخرج إلى الناس
والكدح والسعي في طلب الرزق وبه إثارة من الخشية تنهيه عن
البنى والمنكر . ولا خير في صلاة بذهن شارد ، وقلب بارد ،
لأنه ينهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر :

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » (سورة المؤمنون) .
« وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (سورة البقرة) .

« قَوْلُ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . . » (الماعون) .

نظام واحد يمسك الدين والدنيا ، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد ، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية ، من اتقاء الله في الضمفاء ، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأداء الزكاة للمعوزين ، والتعفف عن الفسوق ، فجاء في سورة (المؤمنون) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » .
وجاء في سورة (النازيات) :

« كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَجْرُومِ » .
وجاء في سورة (المزمل) .

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآفَرُّوا بِاللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا . وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا » .

ولست أى صدقة تعد إحساناً . كلا !
 « قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ
 غَفِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
 وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (سورة البقرة) .

وبئس الصدقة ما كان رثاء الناس . وبئس الصلاة ما كانت
 رثاء الناس فلا تجعله رحياً عفيفاً :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ
 وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ
 عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »
 (سورة الماعون) .

وصلاة هذا شأنها ، تتكرر في اليوم جملة مرات ، لا يلهى
 عنها بيع أو شراء . إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله ،
 ومن يفعل ذلك . « فَادِّ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
 لَا انْفِصَامَ لَهَا » (البقرة) .

ولكن أين تكون تلك الصلاة ؟ هل لابد فيها من وساطة
 رجال الدين ؟

هنا تبرز خصوصية الإسلام في أمر الصلاة التي تقف المرء
 بين يدي الله جملة مرات في كل يوم .

كل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجداً ومحراباً .
 لا هياكل بعد اليوم ! ولا كهانة بعد اليوم ! ولا وسطاء بين الله
 والإنسان بعد اليوم ! ولا وصاية على ضمائر الناس ! فكلهم أمام
 الرحمن سواء . والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها
 ولا التواء . فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلاً إلى ربه « والله سميع
 عليم » . وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربّه ،
 أو يدعى لنفسه القوادة على ضميره وعقيدته .
 وما هنا لابدل من وقفة .

إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظاهرات اليهودية ،
 وهدم تشكيلات الطقوس . ونادى بعبادة الضمير النقي .
 وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلي .
 إنى أعتقد أن المسيح نقض الكهانة ، لأنها تناقض عبادة
 الضمير والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله . . وأعتقد أن
 كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه . أما هو فلم
 يرد في نصوص أقواله ما يبرر قيام الكهنوت .

ن من يطلب من الناس أن ينادوا الله بقولهم « يا أبانا الذي
 في السماء » ، كيف يمكن أن يجيز وسطاء بين الأب والأبناء ؟
 إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق . ولا مكان في هذا
 الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه .

بَرْحَ الْخَفَاءِ،

لم يبق شك في أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور
البشرية الطبيعي .

جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض في العقيدة
الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن
والروح في كيان واحد .

ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد في السمو الروحي . فما
كانت دعوة تهوين أو إسفاف . بل دعوة اتساع في الأفق وشمول
في النظر . يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته . ثم هو متروك
في أمر طاقته لضميره وسريته ، أن يقول صادقاً :

« رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا » (سورة البقرة) .

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » (سورة البقرة) .

فالمعول عليه السريّة والنية والصدق . فهذا الدين — كما قال

رسوله — « يسر لا عسر » وهو دين متين « فأوغل فيه برفق » .
لا زيف في هذا الدين إذن . وهو مُلَبِّ حاجة البشر كافة ،
سوادهم وخاصتهم . لا مستخ فيه ولا إنصاف ، ولا عسر فيه ،
ولا إجحاف . وإنما هو « صراط مستقيم » لا إعنات فيه للفكر
السليم والبداهة السديدة .

برح الخلفاء . وأثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق .
وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المصميات والخوارق
الغريبة عن طبيعة معدنه في الاقتناع والتصديق . ورد اعتبار
البدن بوصفه هيكل الروح ، فهو ليس مصدر خزي لصاحبه .
ولا هو بالرجس وإنما الرجس في مقارفة المحرمات المحددة شرعاً .
وفي الإضرار بالنفس أو الغير . وبغلبة الشهوة على صاحبها .
فصاحب الرسالة هو القائل .

« إن لبدنك عليك حقاً » .

والقرآن يكرر ذلك المعنى في أكثر من موضع :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا (البقرة) .
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » (البقرة) .
« لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » (المائدة) .
« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » (الأعراف) .

— ١٥٣ —

هو دين يسع الناس كافة ، ويهديهم كافة ، ولكن حذار
أن يظن ظان أن دعوة الإسلام استهوت الناس بشمالي غرائزهم ،
أو رشوة منافعهم وأترتهم . أو إباحة الأهواء والشهوات .
فإن ذلك يكون ضللاً كبيراً ، وجنوحاً إلى عكس مضمون
تلك الدعوة .

إن الرسالة الإسلامية جاءت لتنظيم الحياة الناس ، بحيث
يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من
الشهوة أو الهوى ، والقسوة ، والظلم ، والإباحية .

فرضت على المرء أن يعمل ، وجعلت قيمته وشرفه معلقين
بعمله ، وسيرى عمله الله ورسوله والمؤمنون .

وفرضت الزكاة على الأموال ، وجعلت للفقير في عنق الغني
حقاً مفروضاً هو الصدقة .

وفرضت الصفيح والعفو ، ومحت الثأر والشحناء .

وفرضت الصلاة والصيام ، وحرمت البذخ والسرف .

وفرضت التواضع ، وحرمت الخيلاء .

وأحلت الزواج ، وحرمت الزنا .

وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاء أربعاء ، وحضت على
زواج الواحدة .

وفرضت الأخوة والمساواة . وألغت العصبية والاستعلاء بالنسب والجاه .

وحرمت الخمر ، وكل ما يخمر العقل فهو خمر ، فالتخمر هو الغطاء . . وكل غطاء للعقل حرام .

وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق الناس وأعراضهم .

فلئن قيل : إن الإسلام اعترف بحق البدن ، فإنما يقال ذلك بوجه معين ، أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشر ذوى أبدان ، لا ملائكة من نور . فهو دين حصيف شامل . لا يرهق الناس من أمرهم عسراً . . ولكنه إذ يمتنع عن الغلو فى إنكار الجسد ، لا يغلو فى إطلاق العنان له ، بل إنه يلزمه حدوده ، وبجمل الزمام فى يد العقل كى يسلك صاحبه مسلكاً طاهراً ، يتمتع بالطيبات مما أحل الله ، شاكراً له نعمه ، مبهتجاً رضوانه . . فذلك البدن إذن أشبه ما يكون بمطية طيبة أخرى براكبها أن يرتحلها إلى كل ما هو طيب ، ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم .

فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون عن شبهة تملق الشهوات ، أو إباحة الأهواء ورشوة المنافع واللبانات .

كان العرب في الجاهلية أهل إباحة ، لا وازع ولا رادع .
 قصفهم بجون . ولهم فجور ، وحياتهم عدوان ، وكسبهم سحت ،
 وليهم خرميسر . فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا
 كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشري ، أنه
 استدرج هؤلاء بما تملقه من غرائزهم وما أباح لهم من مباحثهم ؟
 إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو ، فماذا عساه
 يكون ؟

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التي براه الله
 فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها ، فاستطاع الإنسان أن يعيش
 غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية ، وقد رسمت له حدود
 تتفق وواقع فطرته ، وتسمح له بالتساعى ما استطاع . ومن لم
 يستطع فلا تثريب عليه . وفي رحمة الله الذي خلقه وعرف
 ضعفه متسع .

ومن سمي هذا التوسيع لباب رحمة الله ، والاعتراف بفطرة
 الله التي فطر عليها بنى آدم ، إباحة أو تملقاً للشهوات ! فإنه إذن
 لمغالط أو مغالط . أترى إن قيل للناس : لا تنفسوا . أ يكون ذلك
 معقولا مقبولا ، وتكون إباحة التنفس تملقاً لأهوائهم
 أو رغباتهم ؟

بل ذلك هو تقدير الاستطاعة وعدم قطع الناس عن رحمة الله
فلا تكون لهم حجة بعد في تعدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى
حقيقة طبائهم بغير إعنات .. وهذا هو القسطاس الحق في
تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطبق كل منهم تسويد
العقل والروح على نوازع نفسه . ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ،
وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة .

بَرِّحَ الخفاء . والرسالة رسالة حق .

بقِ إذن أمر الرسول . وهل هو رسول صدق . فإن « الله أعلم
حيث يجعل رسالته » ، فهل كان الرسول أهلا لهذه الرسالة ، جديراً
بشرفها العظيم وقدرها الكريم ؟ .
ذلكم هو موضوع هذه الصفحات .

شجاعة الإيمان

إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى في سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد .

إن الرسالة التي تسير بصاحبها على مهاد من الود ، ويكون هدفها النعم له أو لذويه لا تدل على إيمان ، بل على وصولية وطمع أو طموح .

وأيا كان المقياس الذي تقاس به دعوة الإسلام ، فلن نجد فيها دليلاً واحداً ولا شبه دليل على أن الغرض منها خدمة شخصه من قريب أو بعيد .

كان موفور الرزق موسماً عليه ، فبدل من ذلك ضيقاً وشظفأ .

كان آمناً في سره ، فبدل من ذلك قلقاً ومطاردة وارتياحاً .

كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه ، بالنسب الرفيع ، والحسب النيع ، فبدل من ذلك إهانة وتحقيراً وازدراء .

كان وحيداً أعزل لا أمل له في نصرة أحد على قومه ،
وهم أئمة الشرك ، وحراس الكفر ، وأولياء عاصيته
المستفيدون منه .

أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم . وأوذوا بسببها في
أرزاقهم ، وفي أعمالهم ، وفي أشخاصهم . وتعرضوا لما تعرض له
من التهلكة أكثر من مرة .

وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفي عليهم
شيئاً من المنافع . فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب
البشر ، أو حظاً من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس
فضلاً عن آله .

كلا ! فهذه نبوة وليست ملكاً . ولا وراثية في النبوة .

كلا ! بل هذا الدين يمحو ما كان لقميلة هذا الرسول قبل
ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان . فالناس في هذا الدين
سواسية كأسنان المشط . . وهذا الرسول هو القائل : إنه لا فضل
لعرابي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى . . وإن
عصبية الجاهلية موضوعة !

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جيماً إلا الخسران

ولا تحمل لقومه - على افتراض نجاحها وظفرها - إلا ذهاب
الرئاسة وضياع الجاه .

بل وحين كسب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين ، ولم
يظفر صاحبها بمغنم ، ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من
حظ عامة جفده وفقراء رعيته . لم يجعل لفئة من الناس فضلاً على
فئة . . بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة .

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية
دعوته حتى المنتهى . ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية
أو أهواء حزب من الناس أو فئة . وصح إذن أنه ما كان ينطق
عن الهوى وأنه « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » .

هي من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان ، وليست مطية
هوى .

هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه في
أشد الظروف حلكة وأدعائها لليأس ؟ وإن لم يكن مقياسه الصبر
في سبيله على المسكاره ؟ .

وإنها لمسكاره من كل نوع . لعل المعنوى منها أقسى من
المادى . ولعل خرج النفس فيها أعتى من الضرب والإيذاء البدنى
بالغاً ما بلغ من العنف .

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته ، على كثرة فنون المساومات ، واشتداد المحن .

وهناك موقف مشهور جداً من تلك المواقف . هو موقفه من عمه أبي طالب حين قال له : إن قريشاً تشدد عليه النكير بسبب ما يبسطه عليه من حمايته . وإنه — على كبر سنه — مهدد باجتماعهم على مقاطعته وعداوته . وقد قالوا له :

— إنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وتقدم عمه إليه بقوله :

— فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .
فهذا عمه ، حصنه الأوحد وحاميه يوشك أن يتخلى عنه . ولن يكون بعد ذلك إلا الهلاك له هلاكاً مؤكداً .

إما هذا وإما أن يخرج عمه ويبقى على حمايته له ، فية معرض ممة للهلاك في تلك المعركة التي لا تكافؤ فيها .

وعمه . . من عمه ؟ .

إنه الذي كفل وربى بعد هلاك الجد ذلك الفتى اليتيم . إنه

الذى دلل وأعز هذا اليتيم . وأردفه على راحلته حين تعلق به صغيراً وقد تجهز للسفر إلى الشام ، فلم تطاوعه نفسه أن يفارقه باكياً ، وصحبه حيث ذهب .

ومحمد أوفى الناس بالمعروف ، وأحفظهم للوداد ، وأبرهم وأقسطهم . أى حرج شعر به أمام ذلك الرجاء ؟ أى تورط ؟ أى امتحان لخلال البر وعرفان الجميل والنخوة ؟ .

لو كان شيء من الأشياء ثانياً جداً عن إيمانه ، لكان هذا الحرج ، ولو كان الأمر بيده بأى صورة من الصور لما صمد لهذا الامتحان . ولو كانت قوة لثزعزه عما تجرد له لكان هذا التوسل من أبى طالب .

إن الامتحان النفسى فى هذا المقام ، والإكراه المعنوى والضغط الأدبى لهما أعنف ألف مرة من اللطمات والبصقات التى كملت له من سفهاء القوم .

وأطرق محمد .. وما أحسب هلاكه كان أهول لديه من تخييب رجاء عمه وكافله . فحق لمن فى مثل نخوته وبره أن يطرق ويهتم . وهو يتعرض لتهمة العقوق .

ثم كانت الكلمة التى لا تنطق إلا عن منتهى مشجاعة الإيمان ورسوخ اليقين بما هو بسبيله .

— ١٦٢ —

— ياعم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته . .
من كابر في صدق هذا الإيمان ، فهو مسكين لا يميز الإيمان
من الدجل ، ولا الصدق من الهزل .

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه ، بل ثابر على نصره
ومنعه وقال له مأخوذاً بذلك الإيمان :

— إذهب يا بن أخى فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك
شيء تكرهه أبداً . . .

واحتمل آله العنت بسبب ذلك . . فكان فضل أبي طالب
مضاعفاً بعد هذا اليوم الفاصل .

ثم يحضر الموت هذا العم النبيل الذي غمره بحنانه وحمايته
وإحسانه صغيراً وكبيراً ، حدثاً وكهلاً مطارداً مبعوضاً . . فإذا
بالرسول يطالبه بأن ينطق بالشهادة كي يستجلب الشفاعة له بها
يوم القيامة . . فيأبى على أبي طالب حفاظاً وخشية أن يرمى
بشبهة الجبن أمام الموت والضعف أمام وعيد يوم الحساب .

وتحسرج الروح ، ويميل على أبي طالب أخوه العباس يسمع
ما همس به في لحظة الأخيرة ، ثم يقول العباس لابن أخيه : إن
المحضر نطق بالشهادة وهو في الرق الأخير . .

— ١٦٣ —

وعلى شدة حبه لعمه الراحل ، وتعلقه به ، ورغبته في نجاة نفسه لقاء ما أحسن إليه وناجح عنه ، لم تتحرك فيه خالجة ، وقال بجمود الراسخ : إنه لم يسمع .

وغيره في مل هذا الموقف كان حرياً أن يبادر إلى التصديق على عهدة الراوى ، وهو عمه العباس . كي يجد في ذلك عزاء وسلواناً وراحة إلى أن عمه وكافله المحبوب لم يمت كافراً وليس مصيره جهنم ذات السعير .

ولكن شجاعة الإيمان تأبى عليه هذه الراحة التي كان وزرها على سواء . فحينما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته ، فلا محل للمجاملة ، مهما قويت بواعثها من كرائم الخلال .

أهذا شأن من يملك من الأمر شيئاً ؟ أهذا شأن من لا تسيطر عليه قوة قاهرة ، أقوى من مراده وهوى نفسه ، هو إزاءها العبد المأمور ؟ . .

لذلك ، هو الرسول الأمين حقاً ، الذى يقول له ربه « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

لامساومة ! وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شيئاً ؟ .

- ١٦٤ -

هاهو ذا يدعو القبائل في موسم الحج إلى ربه ، يقف بمنازلهم .
فمنهم من يمرص ومنهم من يسخر . وها هو يقف يوما على منازل
بنى عامر ، ويتكلم في يقين وبساطان . . وأى سلطان ألى من
سلطان اليقين بالمميز ذى الجلال ؟ .

ويظهر كبير القوم بما سمع ، ويرأها فرصة يجدر به أن يهتبلها
عسى أن تكون لقومه بذلك الداعي رئاسة أو يحدث لهم ذكرا
وحاها . فيقول له :

— أى محمد ! أفإن تابعتناك على أمرك ثم أظهرك الله على من
خالفك ، أيبكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة فإنه يطلب إلى
قوم أن يتبعموه ويمنعوه حتى يبالغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة
وفي ذلك من البلاء والمشقة ما فيه . بل فيه من الهلاك للأنفس
والأموال ما فيه . وفي منطق المساومة وتبادل المنافع لابد من
مقابل لكل خدمة تؤدي أو منفعة ترجى . . فليكن الأمر إذن
كما يطالب به شيخ بنى عامر . فهو عرض معقول ، يصلح أساساً
على كل حال للمدارسة بين الطرفين .

ولسكن محمداً لايساوم .

ولسكن محمداً مأمور ليس له من الأمر شيء .

— ١٦٥ —

ولكن محمداً لا يرى الإيمان بالله منةً للمؤمنين على الله ورسوله
بل منةً لله على المؤمنين . هداهم من ضلال . ونصر الله حق عابهم
كفاه هذا الفضل العميم . وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة .
وكان محمد وحيداً لا يكاد يجد لدعوته سميماً .
وكان محمد مطارداً لا يجد مانعاً ولا نصيراً .
ولكن محمداً لم يقبل المساومة في أمر هو من شأن الله
وحده . وهو لا يملك من الأمر شيئاً .

— الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء !

ما هذا قول منامر مساوم مداور . هذا قول لا يصدر إلا عن
شجاعة إيمان نادر . ساطان إيمانه عليه قاهر ، لاحيلة له فيما يأخذ
وفما يدع .

وأكثر من هذا لا يهتز له إيمان محمد .
هؤلاء ذؤابة قومه قریش يجتمعون عند الكعبة ويرسلون
إليه . ويقول قائلهم له :

— يا محمد ! إنا واللوات مانم رجلا من العرب أدخل على
قومه مثل ما أدخلت على قومك . فإن كنت إنما جئت بهذا

— ١٦٦ —

الحدث تطلب به مالا جئنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيتك رؤيا تراه قد غلب عليك : بذلنا لك أموالنا في طاب الطاب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

هو إذن ملك حاضر بغير عناء أو جهاد أو انتظار . وثرء مائل لاضرورة معه لجهد أو اضطبار . فما يبتغى مغامر نفعى سوى ذاك ؟ .

وأى مساومة هذه ؟ إنها أشبه بالتسليم المطلق من كل قيد . إلا أن يدع ماهو بسبيله من الدعوة .

ودون هذا خرط القتاد !

ودون هذا شجاعة الإيمان التي ما كان عن سواها يصدر جوابه على تلك المساومة التي يسيل لها اللعاب :

— ما بى ما تقولون ! ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا . وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم

— ١٦٧ —

به فهو حفظكم من الدنيا والآخرة . وإن تردوه علىّ ، أصبر لأمر
الله حتى يحكم الله بيني وبينكم !

كلام العبد المأمور الذي ليس له من الأمر شيء ، كلام
الرسول المكلف بالبلاغ الأمين ، ولا مأرب له من وراء دعوته ،
وقد استنفدت المأرب في ذلك المرض الذي شمل كل شيء ، من
الجاه المريض إلى الملك المضوض .

ولكن معاذ الإيمان ، وشجاعة الإيمان . ما الملك ؟ وما
الجاه ؟ وما الثراء ؟ .

هباء هي ، أو أهون من الهباء .

وفي أي وقت يقول هذا ؟ وفي ثبات من لا يشعر أنه يفعل
أمرًا خارقًا أو يهيم بمقاومة إغراء تحشد الحماسة من جوانب
النفوس لللاقاته ؟ .

في وقت عزّ فيه النصير ، وطارده السفهاء بالأذى في قريش
وغير قريش أينما ذهب يقوم بأمانة الدعوة ، حتى بلغ منه الضيق
مبلغه وحزبه الأمر ، وصاح ذات يوم بصوت يخنقه البكاء :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على
الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين وأنت ربّي ! إلى
من تسكني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدوّ ملكته أمري ؟ إن

لم يكن بك على غضب فلا أبالي ! ولـكن عافيتك هى أوسع لى
أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر
الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك .
لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك !

أى شىء هذا إن لم يكن غاية الغايات من شجاعة الإيمان ؟ .
ضرب وشج وتحقير فى كل مكان : حتى يصرخ هذه
الصرخة من قلب صديع ، ثم لا يعنيه من ذلك شىء ، سوى
خوفه أن يكون بالله عليه غضب ! فإلا يكن ربه غاضباً عليه ،
فهو لا يبالي ! . . ثم يعنى بانقلاب الحال إلى ملك مؤئل وثناء
مذل ، فلا يـكـر فى شىء من ذلك طرفة عين ، ويعرض عنه
بغير مبالاة .

فإلا يكن هذا هو الصدق الصادق ، فقد ارتسكست مقاييس
تجمل من صاحب هذه المواقف ومثيلاً لها مساوما مغامراً طالب مغنم .
وسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمهم شأن قوم
على ألا يعدلوا .

وسلام على الصادقين .

لا ادّعاء

من لم يكن صادقاً في دعواه ، فهو دعي لا يسلم من أعراض
الادعاء مهما تصنع الصدق .

وتجتمع أعراض الادعاء في انتحال صفة أو قدرة أو حق
ليس للمرء حقيقة .

وما كذلك كان أبو القاسم .

لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقاً يستعمل بها على أحد ،
أو يرتب لنفسه بها سلطاناً أو تقدماً .

ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد
الناس لا يزيد . ليس عليه إلا البلاغ .

عليه البلاغ . ولكن أى شيء له ؟

لا شيء . ثم لا شيء . ثم لا شيء .

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » :

امرو عليه وليس له .

أين من ذلك دعوى الأدعياء ؟ .

ولما طواب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه يسأله أن يؤيده
بخارقة بل خوطب مأموراً بما يقول لهؤلاء :

« قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ :
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنَّ رُتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ
السُّوءُ : إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأعراف) .
« قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ »
(الأنعام)

لادعوى ولا ادعاء . ولا مظاهره من الخوارق والبوارق .
وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ »
(الأنعام)

« أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ » .

بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس ،
ولا حجة له سوى هذا . فما هو بصاحب معجزات . ولا هو يمتنى
الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها إلا الله . ولا يعدم بدفع السوء

عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه . ومن لم ينفعه
عقله في الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال فهو
أعمى . « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ » : وليس بنافعه إذن
خوارق المعجزات .

* * *

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحي أول مرة وهو
يتحدث في غار حراء صائماً قائماً يقلب طرفه بين الأرض والسماء .
جياش النفس منقطعاً عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من
الدينيات والقصف والمتاع الحسى الغليظ ، لم يأخذ هذه التجربة
مأخذ اليقين ، ولم يخرج إلى زوجه خروج الواثق بها المتلف
على شرفها . بل ظن ذلك في أول مرة رؤى من الجن . وارتعدت
فرائصه من الروع وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة
الخارقة ، ودخل على خديجة وكأن به رجفة الحمى فذرته
ونام مطمئناً إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى
فريها ورقة بن نوفل وهو من نصارى العرب .

واستيقظ محمد فصحبها إلى هناك وقص على الشيخ الكتباني
ما وقع له في الغار من الرؤية والسمع . . وأطرق الشيخ هنيهة
ثم قال لقريبته خديجة :

— ١٧٢ —

— قدوس قدوس ! والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه
الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى .

واطمان عجد قليلا ، ثم تراءى له الوحي وهو في سِنَّةٍ من
النوم فنقل نفسه وتفسد جبينه بالعرق ونزلت عليه (سورة المدثر) :
« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ
فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .
ونهض عجد مرتجفا مأخوذاً . ورأت خديجة ما به من روع
فدعته إلى النوم ليصيب شيئاً من الراحة فقال :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل
أن أنذر الناس . وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن ذا أدعو؟
ومن ذا يستجيب لي ؟

وليس هذا حال دعى يافق دعوى للناس لا يؤمن بها .
ليس هذا حال المتصدى لأمر عن هوى . ليس هذا حال ملفق
دجال بل هذا حال رجل متحرج لا يريد أن يصدق ما تراءى له
إلا ببرهان ويقين ، فقد فوجيء بما وقع له وتولاه الروح والغزع .
هو إذن تسكليف لا تأليف .

وهو تسكليف مرّ شاق : أأست ترى هذا المرفه الناعم
في ظل زوجة هي أشبه له بالأم ، يقول لها في حسرة وأسى :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ! ؟ .

ألست ترى هذا المتحسر المروع حائراً لا يدري ما يصنع
بهذا التكليف . من ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟
ما هذا قول مغامر دعى أفاق يلتمس مغنا ويرسم خطة
للسكسب أو مهتبل فرصة مواتية للظفر . بل هذا قول من يرى
نفسه مأموراً بما لا يكاد يطيق ، والطريق أمامه مسدود . فمن ذا
يدعو فى عاصمة الأوثان إلى عبادة الله ؟ ومن ذا يستجيب له بين
سدنة تلك الأوثان ؟ وإن هذا الحائر المتحسر لا يدري بعد خطورة
ما هو بسبيله . شأن من دبر أمراً وبيته بليل وحسب حساب
العواقب . وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله . لا يحز به
إلا من يدعو به إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التى
ألقيت على كاهله إلقاء . فلما قال له ورقة بن نوفل :
— ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . إذن لأنصرنك
نصراً مؤزراً .

قال محمد متمجّباً :

— أو مخرجى هم ؟ .

فقال له الرجل المحرب المطلع على تاريخ الأنبياء :

— لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن
يدركنى يومك لأنصرن الله نصرأ يعامه .

« أو مخرجى هم ؟ » .

كلمة كافية وحدها للكشف عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه . وأنه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته . ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان ، وبين الثمن الذى يزمع أن يدفعه سواء خذل أو ظهر .

أجل : هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيًا وتسكيفًا ، لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء .

وشرع محمد كما أوحى إليه ينذر عشيرته الأقربين ، وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين . ثم انتظر محمد أن يدلّه الوحي على ما يفعل لإنذار الناس ومحاقتهم وهدايتهم . فإذا الوحي يبطل عليه . حتى ظن أنه كان مخدوعاً فيما تراءى له من قبل ، أو أن ربه انصرف عنه بعد أن اصطفاه . وتمسكه فزع ووجل .

وطال انقطاع الوحي ، وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء . واشتد به الأمر حتى ظن أن ربه قلاه ، فحزن واغمى وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحي ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة :

« وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ .
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ .
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ
فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

عجيباً ! فيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضح هذا القرآن
مدعيّاً ملفقاً ؟ ما كان أغناه عن فضيحة فتور الوحي لو لم
يكن أميناً غير متصنع ولا مموه . وإنما هو الصدق الصراح بغير
تعديل أو تحوير ؟ . . .

ثم مسألة الروح . .

سأله القرشيون خارقة ، فقال « إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »
فسأله عن الروح ما هي ؟ . . فقال لهم :

— أخبركم بما سألتكم عنه غداً . .

ثم يعضى نيف وأسبوعان ومحمد لا يأتيهم بخبر الروح كما
وعد ، وما عهدوه من قبل مخالفاً . ولا سيما وهو اليوم في مقام
التحدي لصدق دعواه .

وأبطل الوحي . ومحمد مكروب لهذا الإبطاء . يتوسل ويتحنن

ويفزع إلى الله أن يرفع عنه هذا البلاء وينزل إليه وحيه ليرفع بين المشركين رأسه .

وما إن يظهر جبريل أخيراً حتى يعاتبه محمد لاحتباسه عنه ويصارحه أنه ساء ظناً لذلك الاحتباس فيكون الوحي .

« وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

ما كان أغناه عن هذا السكرب وهذا البلاء . وتمرضه لسخريه قريش وقد وعدهم الجواب غداً ، لو كان يملك القول من نفسه ، ولم يكن الأمر لربه ؟ .

« وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » .
« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

تأنيب واضح ، يرد الأمر إلى من بيده الأمر وما هو بقول دعي ، وما هو بمسلك المستقل بشأنه . وإنما هو المأمور ، الصادق بالأمر ، الصادق في أمانة البلاغ المبين .

وما من دعى إلا وهو مطية الشمور بالنقص ، فيدفعه ذلك
إلى المغالاة في شأن نفسه ، والتزيد في مدى قدرته .

وما كذلك كان محمد !

مر يقوم على رؤوس النخل ، فقال :

— ما يصنع هؤلاء ؟

فقالوا :

— يلقحون ، يجمعون الذكر في الأنثى فتلقح .

فقال :

— ما أظن يغنى ذلك شيئاً .

فأخبروا بذلك فتركوه صادعين برأى الرسول . وتقصت

غلة النخل ذلك العام وخرج شيصا ، فذكروا له ذلك فقال .

— « إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به .

وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنا أنا بشر . أنتم أعلم بأمور دنياكم ! »

وقيل إنه قال :

— إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن !

لم يرتج عليه ، ولم يكابر . ولم يسؤه أنه أخطأ الظن . بل

اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم . وما هكذا يكون موقف دعى

يستولى عليه شمور النقص وهو أبين الأمراض التي تنتاب

الأدعياء . .

— ١٧٨ —

وأكثر من هذا :

سمع فوما يختصمون ببابه ، فخرج إليهم . وإذا به — وهو
الرسول المسموع المطاع يومئذ — يقول لهم .

— إنما أنا بشر ، وأنه يأتيني الخصم فلمل بعضكم أن يكون
أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأفضي له بذلك . فمن فضي
له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها !
إنما أنا بشر أخطئ وأصيب

تلك مقالة من لا يخطر له الادعاء ببال ، وإنما هو يذكر ويُذكر
دواماً أنه كسائر الناس . وهكذا الصادق الذي لا يشغله تمويه
حقيقته ليبدو أفضل مما هو .

وسلام على الصادقين .

· الجهاد الأكبر ·

الجهاد الأكبر جهاد النفس . .

هو قائمها . وإنه في ذلك الجهاد لغارسه المعلم ، وبطله الذي لا يشق له غبار .

رجل فرد هو لسان السماء . فوقه الله لا سواء . ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين . ولـكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر . بل يشفق ، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها للحرب الزهو في سريره ، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه .

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيدى ، وما استقام له من السلطان ، اعتد بذلك كله واعتز ، لما كان عليه جناح من أحد ، لأنه إنما يعتد بقيمة مائلة ، ويمتاز بمزية طائلة .

يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه ، فيقول لهم .
— لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبد الله ،
فقولوا : عبد الله ورسوله .

ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيماً له ، فينهانهم عن ذلك قائلاً :

— لا تقوموا كما يقوم الأعاجم بمعضهم بعضاً !
ويعرض المريض من أدنى الناس فينوده . ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيمزيه في مصابه ، وقد يدعوه عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع . ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم في حجره . ويمارح أصحابه ويتبسط في الحديث معهم . ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف ، ويؤاكل خدمه ويشاربهم ، ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم في البيت وغير البيت .

وكان حفيده الحسن بن علي من فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلي بالناس ساجداً ، فيظل على سجوده حتى لا يعجله لينزل عن ظهره !

وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيدياً من إكرامهم . كما فعل بوفد بجاشي الحبشة .

ذلك هو الرسول الذي خاطبه الله في القرآن قائلاً :
« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .
وأى خفض جناح أكثر من عدله وقصاصه من نفس كلما كان لأحد لديه حق ؟

فها هو ذا يوم بدر ، والمركة غير متكافئة بين المسلمين وقريش : وهي بعد أول معركة يخوضها المسلمون ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة كله ، لأن قريشاً — على حد قول الرسول وهو يتضرع إلى ربه يسأله النصر — « قد أقبلت بخيلائها ونفورها تحارب وتسكذب رسولك »

في هذه الموقعة ، والموقف متحرج غاية الحرج ، أخذ النبي يسوى الناس صففا صففا ، ليستقبلوا العدو على تعبئة ونظام . وكان في يده عود يشير به إلى من يأمره فيتقدم أو يتأخر ليستوى الصف

وخرج رجل من سواد الجند عن الصف ، اسمه سواد بن غزية ، فدفع النبي بالعود في بطنه ليستوى : فقال له سواد :

— يا رسول الله أوجمتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ! فأقدنى يا رسول الله ومكنتى من نفسك لأقتص منك !

ووقف النبي مقمها لا كي يقتص منه سواد دفعة في البطن بدفعة في البطن ، ولكن الرجل قال :

— إن عليك قيصاً وليس على قيص !

فرفع الرسول قيصه عن بطنه متأهباً للتصاص من نفسه ! وليس يعنيننا أن الرجل لم يقتص من النبي ، بل عاقبه وقبل

بطنه العارى ليكون مس جلده آخر عهده بالدنيا.. فما كان الرسول يتوقع هذا ، بل كان يتوقع المقاصة التى تهبأ لها عن طيب خاطر .

وتحضر النبى الوفاة ، وقد هدى الناس وأهمهم ، « وما كان براعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب منه فى المسلمين » كما قال عمه العباس ، فلا يعنيه فى آخر خطبة له بالمسجد وقد تحامل على نفسه وبرز إلى المسجد إلا أن يقول :

— أيها الناس ! ألا من كنت جلدت له ظهرأ فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخشى الشجواء من قبل فإنها ليست من شأى ؟ ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقأ إن كان له ، أو حللى فلقيت ربى وأنا طيب النفس !

ما أعظم وما أروع !

ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها إلا سرت فى جسمى قشعريرة ، كأنى أنظر من وهدة فى الأرض إلى قمة شاهقة تنخلع الرقاب دون ذراها

أبند كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، إذ أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، تراك

— ١٨٣ —

بحاجة إلى هذه المقاصة كي تلقى ربك طيب النفس وفد غفر .
لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر
ولسكن العدل عندك مبدأ . العدل عندك خُلُق ،
وليس وسيلة .

وعسير بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مراتب الأنبياء

وزهدك يا محمد ؟

زهديك وقد أحلت لأمتك الطيبات ، وحببت إليك ؟ .

هذه أم سلمة زوجك تصف ما وجدته في دارك ليلة عرسها
— نظرت فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحي وبرمة
وقدر وقعب . فأخذت ذلك الشعير فطحنته ، ثم عصدت البرمة ،
وأخذت القعب فأديمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله
عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه !

وكل كلام بعد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث في
التعليق على زهد الرجل الذي لم يؤت أحد في زمانه سلطانا على
أصحابه كما أوتي ، لولا أنه يرى برهان ربه رأى الميان ، فتصغر
في عينه الدنيا وما فيها . . . ويؤثر على نفسه ولو كان به
خصاصة ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة . ولا يدخر لغيره شيئا .

أليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى فوت عياله ؟
ومن هو ؟

هو السيد غير منازع ، وقد أوتى الفتح المبين . وعنت
له رؤوس الماعدين . ولكنه كان مشغولاً بأن يسود نفسه
لا بأن يسود الناس

لهذا كان ينام على حشية من ليف . ولم يبلغ من طعام حد
الشبع . ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين ، وجعل طعامه
التمر ، لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيراً . وكـم من مرة ربط على
بطنه حجراً ليقاوم الجوع حين يشتد عليه .

وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف
طعام زوجها العظيم الذى لم يؤث كسرى ولا قيصر مثل ساطانه
على قومه :

« ولم يأكل النبى خبزاً مرققاً ولا أكل خبزاً نقياً . وقد جاءت
إليه فاطمة ابنته يوماً بكسرة خبز فقال :

— ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ .

قالت :

— قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيتك بهذه الكسرة
فقال صلى الله عليه وسلم :

— أما إنه أول طعام دخل فم أبىك منذ ثلاثة أيام !

— ١٨٥ —

ودخل أبو بكر بيت النبي ليلاً ، فلم يجد سراجاً ، فسأل
ابنته عائشة :

— أما لكم سراج ؟

فقال :

— لو كان لنا مانسرج به أكلناه !

وماذا يسرج به ؟ الدهن أو الزيت . وذاك ما كان يعوز نبياً
وهو لا يعوز أفقر أتباعه الذين يفدونهم بالنفس والنفيس .

قصة شاهدة في الزهد لا يطيقها كثيرون . فلا عجب أن يرى
زوجاته يتضجرون بهذا الضيق ، وهو الذي يملك خمس الغنائم
بشريعة القرآن ، فيهلك ذلك في الصدقات ولا يستبقى لآله من
الطيبات شيئاً ، حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليلاً ككنه عسى
أن يرد عنهم غائلة الجوع . وهن يرين زوجات أدنى المسلمين
شأننا أوسع منهن رزقاً وأحظى بالرفاهية والزينة .

وصارحنه بما في نفوسهن من الضيق بهذا الضنك . فآلى أن
يمتزلهن جميعاً شهراً من الزمان ، حتى يتحدث الناس أن النبي
طلق أزواجه .

وذهب النبي فعلاً يخبرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه
به من المعيشة !

وليس يعنيننا هاهنا أنهن جميعاً اخترن الحياة معه على الوجه

الذى يريد لنفسه ولهن ، فما كان يدري شيئاً من هذا حين خيرهن ذلك الخيار . بل كان موطناً نفسه على أنهن قد يخترن ما تصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا . . . وكان مستعداً لهذا الموقف مؤثراً زهده على كل شيء . . .

وعمر الزاهد الخشوشن ليس فى زهده إلا تلميذاً لهذا الزاهد المطبوع . وقد رآه يوماً وقد أثر فى جنبه الحصى الذى يفرشه لنومه ، فقال له :

— يا رسول الله ! قد أثر فى جنبك هذا الحصى . وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ! ؟ .
فاستوى النبی جالسا وقال :

« أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ! »

ذلکم هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعاً لا ضرورة . وغنى نفس لا فقراً ولا عجزاً . . . فإنه كان أقدر القادرين على البذخ ، لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدماً عنده على الاقتدار على الناعم والطيبات .

وفتنة السلطان يا أبا القاسم ؟
ما عرفت شيئاً يغير الرجال ويمتحن معادهم مثل فتنة

السلطان ، وما رأيت رجلاً — إلا الأفل الأفل — لم تغيره بوادر النفوذ ، ولم تدر رأسه خمر الساطة . فإذا خيلاء وصيد تنغى له النفس ، حتى ليصدقني فيهم قول القائل : إنهم ينحطون باطلاً كلما ارتفعوا ظاهراً ، وإن فيهم الفتى الغر الذي لا يحسن من أمر نفسه شيئاً ، فضلاً عن أمور الناس ، وينتفش بما ألقى إليه من فتات الأمر والنهي كأنه الديك الرومي ، أو يتناقل في خطوه وقد برز صدره ورأسه ، كأنه شترية يتأهب للانطاح !

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت في جانب ما أوتيت أنت من السلطان يا أبا القاسم ، يا لسان السماء ، ويا حاكم الدنيا ، ويامن لا يعملو سلطانك على أتباعك من بني آدم سلطان ، فليس فوقك إلا الهيمن الأحده ؟ .

هباء سلطان أولئك جميعاً مهما علوا واستطالوا إلى جانب سلطانك ، أو أهون من الهباء .

وما فتنتك سلطان . وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار والمطاردة ، إلى النصر المؤزر ، والفتح المبين والطاعة العمياء والسودد الذي لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد !

يسمع الابن البكر أنك وجدت على أبيه ذى الأيد والبأس فيأتيك يسألك الرخصة أن يضرب عنقه ، فهو أولى بذلك من سائر الناس ، لتكون لك به قرعة عين ثم تأتي أنت وتعفو وتصفح عن ذلك الغادر المتآمر كرامة لولده الطائع .

إلى هذا المدى بلغ سلطانك ، وناهيك به من سلطان . فما دار لك رأس ، ولا ركبتك خيلاء ، ولا أصابك تيه وزهو ! بل كنت تمشي في الأرض هونا . وتزداد مع نمو سلطانك تواضعا لله وخفض جناح المؤمنين ! وكنت تقول وتعيد القول لا تمل من تكريره :

— إنما أنا عبد ، آكل كايا كل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ! وتذهب مع أبي هريرة إلى السوق فتشترى لنفسك سراويل ويثب البائع إلى يدك ليقبلها ، فتجذب يدك من يده مستنكرا وتقول له :

— هذا تفعله الأعاجم بماوكها . ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم « رجل منكم »

وما كان ملك من ملوك الأعاجم أو غير الأعاجم أبعد منك نفوذا في قومه ، ولا أمضى كلمة وسلطانا منك في رعاياه . . ولكنها عصمة الله التي عصمتك بها من فتنة ذلك السلطان ، وإنه لكبير أجل كبير أمر ذلك السلطان ، وكبير مقام عليه من الحق والهدى والفضل العميم ، ولكن لباب المسألة كلها أنك كنت أكبر من سلطانك هذا الكبير ، ولم يكفك أن ترى نفسك أجل من خيلاء تقبيل اليد ، فإذا بك تقول لأبي هريرة وقد تقدم يحمل عنك ما اشتريت :

— ١٨٩ —

— صاحب الشيء أحق بشيئته أن يحمله !
«رجل منكم»

ذلك ما أردت لنفسك ، وما أرادته لك خلة التواضع السمح .
بل أراده لك صدق الإيمان بأن الله الأمر جميعا ، وأن ليس لك
من الأمر شيء !

ويأتيك الرجل من الأعراب لييايمك يوم الفتح الرهيب ،
وأنت فوق قمة السلطان ، فتأخذه الرهبة بين يديك ويرتعد ،
فتأخذك من ذلك دهشة رائمة في بساطتها وتقول له :

— «هون عليك ! لست بملك ! إنما أنا ابن امرأة كانت
تأكل القديد بمكة » !

إني والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو
بالمنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان ، وأنا أتمثلك في هذا الموقف
الذي لا تدانيه في علوه وقفات المواهل الفاتحين . وإن مجد هذه
الكلمة وحدها ليرجع في نظري فتوح الفزاة كافة ، وأبهة
القيصر أجمعين ...

أنت بأجمك في هذه الكلمة ، وما أضخمها أيها
الصادق الأمين !

ثم سلام على الصادقين

لابد مما ليس منه بد

ماذا بقى من مزعم زاعم ؟ ،

إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه النصر ،
وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة
الأوثان والأزلام ! .

وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية حاجة الإنسان
الطبيعية ، موقفة بين دينه ودنياه ، ومتلافية تلك القسمة المسقمة
بين الروح والبدن ، فى السر والعلن . . .

ونزاهة ترتفع فوق المنافع ، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة ،
وسماحة لا يداخلها زهو أو استتالة بسلطان مطاع . . .

لم يفد ، ولم يورث آله ، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من
ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها . وحرم على نفسه ما أحل لأحد
الناس من أتباعه ، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى
الجاهلية ، حتى جعل العبدان والأحابش سواسية وملوك قريش !
لم يمكن لنفسه ، ولالذويه . وكانت لذويه بحكم الجاهلية

— ١٩١ —

صدارة غير مدفوعة ، فسوى ذلك كله بالأرض ! .

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق ،
أو تدافع هذا الصدق الصادق ؟ .

لاخيرة فى الأمر :

مانطق هذا الرسول عن الهوى .

لاخيرة فى الأمر :

ماضل هذا الرسول ، وماغوى ...

لاخيرة فى الأمر :

وما صدق نشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين ...

فسلام عليه بماهدى من سبيل ، وما قوم من نهج ، وما بين

من محجة ...

وسلام على الصادقين ...

الموسوعة الإسلامية الكبرى

• إن الكتاب الذي بين يديك هو الحلقة الأولى وحجر الأساس من موسوعة كبرى تتناول مجد الإسلام وتراثه وحضارته تتاولا جديداً . فبميزان نزيه مستقيم يقدم الدكتور نظمي لوقا منها عقلياً نفسياً إنسانياً يقوم على تقديس الحقيقة من حيث هي ، بصرف النظر عن نسبتها إلى هذا الفريق من الناس أو ذاك

وحقيقة الإسلام والتراث الإسلامي خليفة على ضوء هذا المنهج أن تعم بتورها كل عقل متفتح للحقيقة ، وكل قلب لا يصد عن الصلح .

إن هذه الموسوعة بكتبها التي تجاوز العشرين كتاباً أصدق حملة على العنصرية العمياء ، وأجهد كفاح في سبيل انتصار النزاهة وسيادة سلطان الحق والعدل والكرامة البشرية . ولا قيمة لإنسان لا قيمة للحق لديه .

• والكتاب الثاني من هذه الموسوعة « شخصية الرسول » مخصص الرد بذلك المنهج العقلي النفساني على جميع المقترحات التي ترمي بها المغرضون نبي الإسلام ، رداً يقع كل إنسان ، ويفرض احترام شخصيته الجليلة على المؤمنين بالإسلام وبغير الإسلام على السواء .